الرابطة

السنة 59 العدد: 683 ذو الحجة 1444هـ. يوليو 2023 م

- الحج: بناء خُلقي وارتقاء روحي
- الرواق السعودي .. مأثرة لخدمة ضيوف الرحمن

وأذن في الناس بالحج

الرابطة
شهرية. علمية. ثقافية. تصدرها رابطة العالم الإسلامي
السنة 59 العدد: 683 ذو الحجة 1444هـ. يوليو 2023 م

بشريات موسم الحج

تتواصل مسيرة النماء والعطاء في خدمة الحرمين الشريفين وقاصديهما منذ أن شرَّف الله - عز وجل - المملكة العربية السعودية لهذا العمل الجليل. وقد أرسى المؤسس الملك عبدالعزيز - رحمه الله - قواعد ثابتة لتنظيم الحج وتوفير المناخ الصحي والأمني لحجاج بيت الله الحرام. واستمرت المسيرة على أيدي الملوك من أبناء الملك المؤسس لتضيف المملكة بعون من الله نجاحات جديدة إلى سجلها المعهود خلال كل موسم جديد.

وتولي المملكة العربية السعودية فائق الاهتمام بأعظم اجتماع بشري على وجه الأرض، ألا وهو الحج إلى بيت الله الحرام، بالسهر على راحة الحجيج وتقديم أرقى الخدمات لهم حتى يؤدوا مناسكهم بكل يسر وسهولة.

ويشهد موسم الحج لهذا العام ١٤٤٤هـ بشريات عديدة، أولاها عودة أعداد الحجاج إلى ما كانت عليه قبل جائحة كورونا دون قيود على العمر، تحقيقًا لمستهدفات رؤية السعودية ٢٠٣٠، إذ تهدف الرؤية إلى زيادة طاقة العمرة والحج لتبلغ ٣٠ مليون شخص سنويًّا.

ومن الجديد في استعدادات حج هذا العام: السماح لبعثات الحج في الدول المختلفة باختيار شركة الطوافة وفق المتطلبات التي يحتاجها حجاج تلك الدول، تحقيقًا للتنافسية وتحسين جودة الخدمات المقدمة لضيوف الرحمن.

أما على نطاق عمارة المسجد الحرام وتوسعته، فإن خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز قد دشن خمسة مشاريع رئيسة ضمن المشروع الشامل للتوسعة السعودية الثالثة، وهي مشروع مبنى التوسعة الرئيسي، و مشروع الساحات، ومشروع أنفاق المشاة، ومشروع محطة الخدمات المركزية للمسجد الحرام، ومشروع الطريق الدائري الأول المحيط بمنطقة المسجد الحرام.

ويتابع ولي العهد صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود من خلال جولات عديدة المشاريع المرتبطة بالخدمات المقدمة لزوار بيت الله الحرام، والمنجزات المتعلقة بزيادة الطاقة الاستيعابية بالمسجد الحرام لاستقبال الزوار والمعتمرين من ضيوف الرحمن.

ولعل من عناصر النجاح التي تشهد زيادة هذا العام: استخدام التقنية في كل مراحل رحلة الحاج، ابتداءً من التقديم للحج في بلده واستخراج التأشيرات والتحصينات اللازمة، حتى وصوله إلى مكة المكرمة عبر المسار الإلكتروني لحجاج الخارج، أو منصة حجاج الداخل.

وتوضع بين يدي الحاج حزمة من التطبيقات الإلكترونية المهمة، تقدم خدمات رقمية خلال فترة الحج والعمرة، مثل معرفة خطوات التنقل بين المشاعر، وتحديد اتجاه القبلة، والتعرف على أوقات الذروة لتجنبها، وتطبيقات صحية وإرشادية تفيد الحجاج في المشاعر المقدسة وفي المدينتين مكة المكرمة والمدينة المنورة.

وعلى مستوى الخدمات اللوجستية الخاصة بالنقل، فقد اكتمل إنشاء أكبر مطار في المملكة لخدمة ضيوف الرحمن، وهو مطار الملك عبد العزيز الدولي بجدة، بتكلفة أكثر من (٤٠) مليار ريال، وإنشاء قطار الحرمين الذي يربط بين مكة المكرمة والمدينة المنورة بتكلفة بلغت أكثر من (٦٤) مليار ريال، والذي أسهم في تقليل مدة الرحلة إلى ساعتين، بعد أن كانت تستغرق أكثر من ٦ ساعات.

نسأل الله أن يتقبل من حجاج بيته الحرام حجهم، وأن يديم نعمة الأمن والأمان والاستقرار والازدهار في البلد الحرام وسائر بلاد المسلمين.

المحتويات

العدد: ٦٨٣ ـ ذو الحجة ١٤٤٤ هـ ـ يوليو ٢٠٢٣ م

4 الحج: بناء خُلقي وارتقاء روحي

10 الرواق السعودي .. مأثرة لخدمة ضيوف الرحمن

22 رحلة الحج من أرخبيل الملايو بين الماضي والحاضر

الرابطة

شهرية - علمية - ثقافية

مساعد الأمين العام للاتصال المؤسّسي

أ. عبدالوهاب بن محمد الشهري

المدير العام للتحرير والنشر

أ. ياسر بن صالح الغامدي

رئيس التحرير

د. عثمان أبوزيد عثمان

المستشار الإعلامي

د. أحمد بن حمد جيلان

مدير التحرير

أ. عبدالله بن خالد باموسى

الدور السعودي في تسهيل الحج للأقليات المسلمة مسلمو آيسلندا مثالاً 30

ضمان أمن الحرم من تعظيم شعيرة الحج 38

الدروس المستفادة من حج منسا موسى 42

المراسلات:

مجلة الرابطة ص.ب ٥٣٧ مكة المكرمة

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٣٠٩٣٨٧

المراسلات على عنوان المجلة باسم رئيس التحرير

البريد الإلكتروني:

mwljournal@themwl.org

الموضوعات والمقالات التي تصل إلى مجلة «الرابطة» لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر

للاطلاع على النسخة الإلكترونية للمجلة الرجاء زيارة موقع الرابطة على الإنترنت:

www.themwl.org

طبعت بمطابع تعليم الطباعة

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٣٤٣

ردمد: ١٦٥٨-١٦٩٥

الحج: بناء خُلقي وارتقاء روحي

بقلم: د. أحمد عبد القيوم عبد رب النبي

الباحث في إدارة الدراسات بالرابطة

حين يَعزم المسلم على أداء فريضة الحج ويتوجّه نحو البقاع المشرّفة فإن عليه أن يستشعر بكلّيته ما تتضمّنه هذه الشعيرة المباركة من تعاليم وآداب وحِكم ومقاصد، ليَحصل له بِرّ الحج، ويعود بحظّ وافر من منافعه وآثاره. فالحج ليس مجرّد رحلةٍ جسدية إلى الدّيار المقدسة التي تهفو إليها أفئدة المسلمين جميعا، بل هو في أساسه رحلة روحية وجدانية، ذات أبعاد اجتماعية، تَفيض بمعاني الكمال الإيمانيّ والرقيّ الروحيّ والسمُوّ الأخلاقيّ، وتَحُفّها المشاعر الجيّاشة، والسجايا الكريمة، والآداب الرفيعة، رحلةٌ إيمانية تتهذّب فيها النفس، وتتربّى فيها الروح، طلبا لتطهير القلب، وتَعلُّم الفضائل، وتزكية الأخلاق، وهي في الوقت نفسه تجسيدٌ عمَليّ للعبودية والإذعان، وغَسْلٌ للذنوب والأدران، واجتماعٌ للنفوس المؤمِنة الصادقة النقيّة على بساط المودّة والرحمة والغفران، ليَشهدوا منافع لهم، ويذكروا

اسم الله في أيام معلومات، مستنيرين بأنوار البيت العتيق، وملْتمسين بركات الأرض الطاهرة التي تشرّفَت بمَقدَم الأنبياء والرسُل الكرام عليهم الصلاة والسلام، مستذكرين وصية ابن عباس، حين قال: "أَدْمِن الاختلافَ إلى هذا البيت، فإنك إنْ أدمَنْتَ الاختلافَ إلى هذا البيت؛ لقيتَ الله عز وجلّ وأنت خفيف الظَّهر".

يقول أحد علماء المقاصد: "إن الحج مَنجمٌ لما لا يُحصى من المصالح الأخروية والدنيوية، فقد اجتمع فيه ما تفرق في غيره، فمن حيث العبادة ففيه الصلاة والذكر والدعاء، وفيه الإنفاق بأشكال متعددة، وفيه الجهاد المالي والبدني، وفيه كبْح الشهوات وتهذيب العادات، ومن حيث المصالح الدنيوية المباشرة، ففيه فرصة نادرة للتبادل التجاري، والتداول السياسي والاجتماعي، وفيه من الأسفار والرحلات من التجارب والخبرات، ومن إغناء للعقل والعلم والمعرفة".

ولأجل هذه المعاني النبيلة التي تضمّنَتها هذه الشعيرة الإسلامية العظيمة فإنّ الله تعالى حرَسها بما يَحفظها، فقال تعالى: "فمَن فرَض فيهن الحجّ فلا رفثَ ولا فسوق ولا جدال في الحج"، قال الزمخشري: "وإنما أُمر باجتناب ذلك وهو واجب الاجتناب في كل حال، لأنه مع الحج أسمَج، كلبس الحرير في الصلاة، والتطريب في قراءة القرآن".

وأكّد هذا المعنى الجميل نبيّنا الأكرم محمّد صلى الله عليه وسلم حين أرشد أمّته إلى التحَلّي بحُسن الخُلق في الحج، طلبا لأجر الحج المبرور، حيث قال: "مَن حجّ لله فلم يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أمّه".

وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الحجّ المبرور؟ فقال: "إطعام الطعام، وطِيب الكلام، وإفشاء السلام"، وروي عن سعيد بن جبير أنه سُئل: أيّ الحاج أفضل؟ فقال: "مَن أطعم الطعام، وكفّ لسانَه"، وقال الثوري: "بِرّ الحج: طِيب الطعام، وطِيب الكلام".

فالعبادات والشعائر الإسلامية وإن كانت متباينة في جوهرها ومَظهرها، لكنها تلتقي جميعا عند الغاية التي رسمَها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "إنّما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق"، فهي في جُملتها ذات صبغة خُلقية واضحة، وجميعها تَهدف إلى الرقيّ بالإنسان نحو مدارج الكمال الخُلقي والسموّ الروحي، سعيا إلى تنظيم المجتمع البشري وتنمية وعْيه، وصون الحياة الاجتماعية وإعلاء شأنها.

ومن هنا كانت رحلة الحج المباركة بمثابة دورة إيمانية تدريبية يكتسب فيها الحاج كثيرا من السلوكيات الحميدة والآداب القويمة والمعاني السامية، ويتخلّص فيها من ذميم الأخلاق التي أَلِفها، وتساهل في علاجها ودفْعها، فتراكمَت عليه عَبر سِنيّ حياته وأيام عُمره، فالحجّ وقفةٌ جادّة لمراجعة النفس ومحاسبتها، وفرصةٌ سانحة يتفقّد الإنسان من خلالها نفسه، فينمي كريم خصاله، ويخلُص من ذميمها.

إن المتأمّل في شعائر الحج ومنازله ليُدرك مساحة الفضائل الأخلاقية التي يتمثّلها الحاج في جنَبات المشاعر، فلا غناء له عن الحِلم والعفو والصفح والتسامح واللين والرِّفق والإيثار والرحمة والتعاون والأخوّة والإحسان والبذل والكرم والصبر والصدق والأمانة والتواضع وسلامة الصدر وحُسن التعامل مع الآخر.

وإنّ مِن حُسن الحج: أن يترفّع الحاجّ عن السقوط في مستنقَع الجدال والخصومات والسباب، مُستشعرا في أداء نُسكه هدي نبيّه صلى الله عليه وسلم حينما حَجّ بصحبه الكرام (حجّة الوداع) فأرشدَهم إلى كل خير وبرّ وإحسان، بل إنه صلى الله عليه وسلم نبّه أصحابه على ترْك بعض المباحات عند التلبّس بالإحرام حفاظا على هذه الشعيرة المباركة وحُرمتها، كما في قصة أسماء بنت أبي بكر حين قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حُجّاجا، حتى إذا كنا بالعَرْج نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم،

ونزلْنا... وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة مع غلام لأبي بكر، فجلس أبوبكر ينتظر أن يطلُع عليه، فطلع وليس معه بعيره، قال: أين بعيرك؟ قال: أضللتُه البارحة، فقال أبوبكر: بعيرٌ واحد تُضلّه، فطفق يَضربه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسّم ويقول: "انظروا إلى هذا المُحرم ما يصنع"؟ وكان هذا الإنكار اللطيف من النبيّ صلّى الله عليه وسلم على أبي بكر رضي الله عنه -كما يقول ابن كثير- دليلا على أن الأَولى ترْك ذلك.

والسنة النبوية وآثار السلف حافلة بالوصايا والتوجيهات التي ينبغي للحاج أن يستذكرها في رحلته الإيمانية إلى البقاع الطاهرة، لتتمّ عملية تخلية النفس عن مساوئ الأخلاق وسفاسفها، ومن ثَمّ تحليتها بمكارم الأخلاق وأحاسنها، ولهذا قال بعض السلف: "ينبغي للحاج أن يلتمس رفيقا صالحا مُحبّا للخير، معينا عليه، إن نَسي ذكّره، وإن ذكَر الله أعانه، وإن جبُن شجعه، وإن عجز قوّاه، وإن ضاق صدره صبّره".

ومن النماذج التطبيقية لتلكم الأخلاق الفاضلة التي يكتسبها الحاج:

- الحرص على الكسب الحلال، فإن الحج عبادةٌ بدنية مالية، يتطلّب نفقةً وزاداً وراحلة مناسبة، فكان على الحاج أن يستعدّ لهذه الرحلة المباركة بتوفير الكسب الحلال، فإن الله لا يَقبل إلا طيبا، وهو ما حرص عليه السلف الكرام، فعَظُمت عنايتُهم بنفقة الحج من حيث كسبُها وجمْعها من طريق حلال لا شبهة فيه، لأن طِيب النفقة في الحج أصلٌ في قبول العمل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: "إذا خرج الرجل حاجا بنفقة طيبة، ووضع رجله في الغَرْز، فنادى: لبيك اللهمّ لبيك، ناداه مناد من السماء: لبّيك وسعديك، زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجّك مبرور غير مأزور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة، فوضع رجله في الغَرز، فنادى: لبيك اللهمّ لبيك، ناداه مناد من السماء: لا لبّيك ولا سَعديك، زادك حرام ونفقتك حرام، وحجّك غير مبرور".

- حُبّ النفع للخَلق وبذْل الخير للغير، والبُعد عن أذية الناس أو إلحاق الضرر بهم، ولا سيما أن أفعال الحج تتطلّب من الحاج قوةً وحركة وعَناء وجَلَدا، مما

قد يوقِعه في نوع من التوتر والقلق والاضطراب، إلا أنه مطالَبٌ بحِفظ الأمن والنظام، وضبْط النفس، والتزام الهدوء والسكينة في كلّ لحظة وعلى أي حال، وألا يَخرج عن طوره الطبيعي في نُسكه، خصوصا في مواطن الزحام، مستحضرا في ذلك قوله تعالى: "ومَن دخله كان آمِنا"، وقوله تعالى: "وإذ جعلْنا البيت مثابة للناس وأمْنا"، وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى هذا الأمر، وذلك حينما رآهم يزدحمون عند رمي الجمرات فقال: "يا أيها الناس لا يَقتُل بعضكم بعضا"، ورَوى ابن عباس أنه دفَع مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة، فسمع النبي صلى الله عليه وسلم وراءه زجْرا شديدا، وضرْبا وصوتا للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: "أيها الناس عليكم بالسكينة، فإن البرّ ليس بالإيضاع"، ومن هنا قالوا: إن الحج رحلةُ سلام، إلى أرض سلام، في زمَن سلام، ليتذوق الناس طَعم السكينة والسلام.

– قبول الاختلاف واحترام الرأي الآخر، ولا سيما أن أحكام المناسك وجزئياته الفقهية متشعّبة، وفيها الكثير من آراء العلماء واجتهاداتهم المتباينة، فلا يسوغ الإنكار على رأي له مستندُه من الأدلة وحَظّه من النظر، وفي هذا بقاءٌ للأُلفة واستدامةٌ للمحبّة بين المسلمين، يقول ربيعة: "المروءة في السفر: بذْل الزاد، وقلة الخلاف مع الأصحاب"، وقال أبو جعفر الباقر: "ما يُعبأ بمَن يؤمّ هذا البيت إذا لم يأت بثلاثة: ورعٌ يَحجُزه عن معاصي الله، وحِلمٌ يكفّ به غَضبه، وحُسن صحابة لمن يَصحبه من المسلمين".

– الانضباط والالتزام بالمواعيد واحترام الأوقات، والجدّية في العمل، والتخلّي عن الراحة والكسل والتسويف، لأن أعمال الحج تؤدَّى وَفق زمن محدّد شرعا، والتأخّر عنه يوقع في الحرج، وقد يترتب عليه جزاءٌ وكفارة، فعلى الحاج أن ينظّم وقته ويضبطَه حتى يتمكن من أداء كل نُسك في وقته المعين، مع مراعاة الأنظمة والقوانين التي تحددها الجهات المسؤولة عن تنظيم أمر الحج.

– التعوّد على الصبر ومجاهدة النفس وتَحمّل المشاق،

إذ يَجتمع في الحج أنواع الصبر الثلاثة: صبرٌ على طاعة الله، وصبرٌ عن معصيته، وصبرٌ على التعب والمشقة، ومعروفٌ أن الأجر والجزاء يَعظُم مع الصبر على المشقة، كما قال صلى الله عليه وسلم لعائشة في العمرة: "أجْرُكِ على قدر نَصبك"، وكان المغيرة بن حكيم الصنعاني يحُجّ من اليمن ماشياً، وكان له وِرْدٌ بالليل يقرأ فيه كل ليلةٍ ثلث القرآن، فيقف فيصلي حتى يفرغ من ورده، ثم يلحق بالرَّكب متى لَحِقَ بهم، فربّما لم يلحقهم إلا في آخر النهار، فعلى الحاج: بذْل المعروف، وكفّ الأذى، والصفح عن الإساءة، وألّا يَحملَه الضجر والتعب على ضيق الصدر وقلة الاحتمال، فقد حج النبي صلى الله عليه وسلم بنسائه كلهنّ، فما كان معهنّ إلا سمْحا كريما، ولنا فيه أسوة حسنة صلى الله عليه وسلم.

- البذل والسخاء والجود والكرَم، فإن الحج له أحوالٌ ومواقف مختلفة، يَنتقل فيها الحاج من صعيد إلى آخر، ممّا يُحوجه إلى المال في كثير من الأحيان، ولهذا كان السلف يتنافسون في الإنفاق على أصحابهم في سفر الحج رغبةً فيما عند الله وبذلا لمالهم في أشرف العبادات، بل كانوا يتسابقون إلى ذلك، فهذا أحد السلف: عامر بن عبد قيس التميمي كان إذا أراد الحج وقف يتوسّم الرفاق، فإذا رأى فئة قال: يا هؤلاء.. إني أريد أن أَصحَبكم على أن تُعطوني من أنفسكم ثلاث خلال، فيقولون: ما هي؟ قال: أكونُ لكم خادما لا ينازعُني أحدٌ في الخدمة، وأكون مؤذّنا لا ينازعني أحد في الأذان، وأُنفقُ عليكم بقدر طاقتي، فإذا قالوا: نَعَم، انضمّ إليهم، فإن نازعه أحد منهم شيئا من ذلك بحثَ عن غيرهم، ويُروى عن السيدة أمّ جعفر أمَة العزيز الهاشمية العباسية أنها أنفقت في طريق الحج خلال ستين يوما: أربعة وخمسين ألف ألف درهم، وفي هذا الباب قصة مشهورة ومشوّقة للتابعي الجليل عبد الله بن المبارك، حتى قال الذهبي في ترجمته: "..أكثر من الترحال والتطواف إلى أن مات في طلب العلم وفي الغزو وفي التجارة، وفي الإنفاق على الإخوان في الله وفي تجهيزهم معه إلى الحج"، ويَحسُن هنا أن نُذكّر الحاج بوصية النبي صلى الله عليه وسلم لأبي جُري الهُجيمي حين قال له: "اتق الله، ولا تحقرنّ من المعروف شيئا ولو أن تُفرغ من دلوك في إناء المُستسقي، ولو أن تُعطيَ صلة الحَبل، ولو أن تُعطيَ شِسْع النعل، ولو أن تُنحّي الشيء من طريق الناس يؤذيهم، ولو أن تَلقى أخاك ووجهك إليه مُنطلق، ولو أن تَلقى أخاك المسلم فتسلّم عليه، ولو أن تُؤنِس الوحشان في الأرض".

- التشوف إلى التيسير والتخفيف، والبعد عن المشقة والحرج والتضييق، ولا سيما أن الحج يَجمَع مختلف الأجناس والأعراق، بما فيهم الكبير والصغير، والقوي والضعيف، والرجل والمرأة، وهذا يتطلّب من مُفتي الحُجّاج ومُرشديهم أن يغلّبوا جانب التيسير والتخفيف في أعمال النسك وفتاواه ما أمكنهم إليه سبيلا، حتى لا يقعوا في الحرج المنهيّ عنه شرعا: "وما جعل عليكم في الدين من حرج"، وما سُئل رسول الله صلى الله عليه سلم يوم النحر عن شيء قُدّم ولا أُخّر إلا قال: "افْعل ولا حَرج"، كما أرشد أصحابه غداة العَقبة إلى أن يكون الرمي بمثل حصى الخَذف، وحذّرهم من الغلوّ في الدين في ذلك الموقف العظيم.

- التواصل مع الآخرين بالتي هي أحسن، إذ يعيش الحاج خلال فترة نُسكه مع أجناس وقوميات مختلفة من شتى أنحاء العالم، مما يُحتّم عليه أن يتأقلَم ويتكيف معهم جميعا، مهما اختلفَت عاداتهم ولغاتهم، ويتعامل معهم بلطف ورفق وإحسان بما يحقق مصلحة الجميع، ليكون الحج بذلك فرصةً للتعارف والتقارب وبناء العلاقات الأخوية مع المسلمين على أسس من المحبة والاحترام، دون تمييز أو تفريق، مستحضرا في ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع: "إنّ ربّكم واحد، وإنّ أباكم واحد، كلّكم لآدم، وآدم من تراب، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضلٌ على أعجمي

إلا بالتقوى"، وهذا ما كان يحرص عليه السلف الكرام عند عزمهم الحج لبيت الله الحرام. يقول أيوب السختياني: إن ممّا يزيدُني رغبة في الحج وحضوره: أن ألقى إخوانا لي فيه لا ألقاهم في غيره، وقال أبوجعفر محمد الباقر: إنه ليزيدُني في الحج رغبة لقاء عمرو بن دينار، فإنه كان يحبّنا ويُفيدنا.

إن الحج كما يَهدف إلى تطهير النفس من الأخلاق الدنيئة، فإنه يَهدف كذلك إلى تزكية النفس وتَحليتها بالأخلاق الكريمة والصفات الحسنة حتى تُشرق النفس وتَسمو على الشهوات المُهلكة والشبهات المُضلّة، وتصل لمرتبة (التقوى) التي جاء تأكيدها أكثر من مرة في آيات الحج، قال تعالى: "وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى، واتقون يا أولي الألباب"، وقال تعالى: "فمن تعجّل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخّر فلا إثم عليه لمن اتقى"، وقال تعالى: "ولكن يناله التقوى منكم"، وقال تعالى: "فإنها من تقوى القلوب"، فيتحرّى الحاج كل خير وبِرّ، ويتباعد عن كل مُنكر وإثم، ولا وصية أجمل من الوصية بالتقوى وتحقيقها، ولهذا يروى عن أحد السلف أنه قال لمَن ودّعه للحج: أوصيك بما وصّى به النبيّ صلى الله عليه وسلم معاذا حين ودّعه: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها، وخالق الناس بخُلق حَسن"، وقال ابن مسعود: "من اتقى في حجّه غُفر له ما تقدم من ذنبه"، وقال ابن رجب: "فما تزوّد حاجّ ولا غيره أفضل من زاد التقوى، ولا دُعيَ للحاج عند توديعه بأفضل من التقوى".

وهذا الربط القرآني بين الحج والتقوى، وكذا نحوه في آيات الصلاة والصيام والزكاة دليل على ما امتاز به الإسلام في العبادات عموما، فليست العبادات فيه مجرد طقوس صمّاء لا تأثير لها في أخلاق الناس وسلوكياتهم ومعاملاتهم، بل هي عباداتٌ حية، ورحابٌ سابغة ذات تأثير إيجابي في تزكية النفوس وتطهير القلوب وإرهاف المشاعر.

إن الحج في حقيقته مسارٌ عَمليّ للتقوى، يمارسه الحاج خطوةً خطوة، منذ خروجه من بيته حتى يحطّ رحاله عند البيت الحرام، حيث الركن وزمزم والمقام، يبتدئ بلباس الإحرام، ويَحرص على أداء الأركان والشروط والواجبات، وفِعل السنن والمستحبات، واجتناب الشهوات والمحظورات، ويبادر إلى الإحسان والطاعات، ويُكثر من النوافل والقربات، مستشعرا عظمة الله في كل المواقف واللحظات، راجيا من الله أن يُكرمه عند انتهاء نُسكه بعظيم الهبات والمكرُمات.

إن تقوى الله بمعانيها الواسعة، وتطبيقاتها المختلفة في الحج، حين يتخذها الحاج مقصدا وغاية فإنه يعيش أياما جليلة وأوقاتا سعيدة مِلؤها تلك المعاني السامية، ومِن شأنها أن تكون بَعد حجّه منهاجا لحياته، وتصحيحا لمساره.

ولْيعْلَم الحاج أن تلك المعاني والأهداف السامية إنما تتحقق بحج مبرور، قد وُفّق صاحبُه لاتباع السنّة واقتفاء الأثر، مع الحذر ممّا يَخدش حجّه أو يَنقص أجره من قول أو فِعْل مخالف، صَغُر أم كَبُر، وهذا ما أبان عنه الإمام الماوردي حين ذكر أثَر الحج في النفوس فقال: "...ثم فرْض الحج، فكان آخرَ فرْضٍ فرضَه الله تعالى؛ لأنه يَجمع عملا على بدنٍ وحقاً في مال؛ فجعل الله فرْضه بعد استقرار فروض الأبدان وفروض الأموال؛ ليكون استئناسهم بكل واحد من النوعين ذريعةً إلى تسهيل ما جَمع بين النوعين، فكان في إيجابه تذكيرٌ ليوم الحشر بمفارقة المال والأهل، وخضوع العزيز والذليل في الوقوف بين يديه، واجتماع المطيع والعاصي في الرهبة منه والرغبة إليه، وإقلاع أهل المعاصي عمّا اجترحوه، وندم المذنبين على ما أسلفوه، فقلَّ مَن حج إلا وأحدث له الحج توبةً من ذنب وإقلاعاً من معصية".

وفي الأثر: "آية الحج المبرور: أن يرجع زاهدا في الدنيا، راغبا في الآخرة".

قصة عمرها ١٢٠٠ عام

الرواق السعودي .. مأثرة لخدمة ضيوف الرحمن

إعداد: عبدالله حسين

تشهد مكة المكرمة أفضل مواسم العام، حيث تكتسي المشاعر المقدسة بالبياض، وتمتلئ الأرجاء بالحجاج، وترفع الكعبة المشرفة كسوتها معلنة بدء موسم الحج، لتلهج الحناجر بالتكبير والتهليل، وفي هذا العام تبدأ جموع الحجيج بالاستفادة من مكونات التوسعة السعودية الجديدة، خاصة بعد أن أضيف إليها الرواق السعودي بمساحة فاقت التوقعات، لتستوعب المصلين والطائفين.

وقد مرّت عمارة المسجد الحرام بعددٍ من التوسعات على مر العصور، فشُيدت الأروقة، وبُنيت الأعمدة

من الرخام، وأنشئت الأسقف وزينت، وزيد في عدد الأبواب، وحظي بالعناية والاهتمام على مر الزمان.

وفي هذا التقرير يُسلط الضوء على (رواق الحرم)، ويُقصد بالرواق في العمارة الإسلامية المساحة أو الممر الواقع بين عمودين، ويحتوي على عقود عمودية أو موازية لجدار القبلة، كما يحتوي على صفوف من الأعمدة، وقد تكون هذه العقود متقاطعة، أي تتجه بشكل موازٍ وعمودي باتجاه القبلة، كما أن الرواق يقصد به في اللغة ما أحاط بالشيء.

رواق الحرم

من المعلوم أن المسجد الحرام كان فناء حول الكعبة للطائفين، ولم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في عهد أبي بكر رضي الله عنه، جدار يحيط به، وإنما كانت الدور محدقة به، وبين الدور أبواب يدخل الناس منها من كل ناحية.

فلما تولى الخلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكثر الناس، وسَّع المسجد، واشترى دورًا فهدمها، وأدخلها فيه، ثم أحاطه بجدار قصير دون القامة، كانت توضع عليه المصابيح، فكان عمر رضي الله عنه أول من اتخذ الجدار للمسجد.

ثم لما استخلف عثمان بن عفان رضي الله عنه ابتاع المنازل في سنة ست وعشرين، ووسع الحرم بها أيضًا، وبنى المسجد والأروقة، فكان رضي الله عنه أول من اتخذ للمسجد الحرام الأروقة.

فالرواق "العثماني" نسبة للخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وإليه تعود نسبته، وهو رضي الله عنه أول من استخدم الأسطوانات والأعمدة في بناء الرواق، وتحصر كتب المؤرخين لعمارة المسجد الحرام عدد الأعمدة والأسطوانات التاريخية بنحو ٩٥

عموداً أثرياً، يعود أقدمها إلى بناء المهدي العباسي عام ١٦٧هـ وتؤكد المصادر التاريخية أن الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك مؤسس التوسعة الرابعة للمسجد الحرام في الإسلام، هو أول من استعمل الأعمدة الرخامية التي جلبت من مصر والشام في بناء المسجد الحرام، بعد توسعات عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعبدالله بن الزبير.

المراجع التاريخية

تتعدد المصنفات والمراجع التاريخية في نسبة الأروقة إلى أول من اتخذها وشيدها؛ إذ يذكر الإمام والفقيه المصري بدر الدين الزركشي في كتابه "إعلام الساجد بأحكام المساجد" (تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي) في الصفحة رقم ٥٧ في فصل "ذكر من بنى المسجد الحرام"، أن الخليفة الراشد عثمان بن عفان أثناء خلافته الراشدة بنى المسجد والأروقة، إذ يقول نصاً: "ثم لما استخلف عثمان رضي الله عنه اشترى دورًا آخر، ووسعه أيضًا، وبنى المسجد والأروقة، وكان عثمان أول من اتخذ الأروقة".

أما ما يذكره المؤرخ والأديب الدمشقي ابن فضل الله العمري فلا يختلف كثيرًا عن "الزركشي"، وذلك في صفة المسجد الحرام المحيط بالكعبة، فيستشهد بما ذكره الماوردي والأزرقي، بأن الصحابي الجليل عثمان بن عفان هو من بنى الأروقة أثناء خلافته. إذ يقول في الجزء الأول من كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" (تحقيق أحمد زكي باشا) في الصفحة ١٠٥: "ثم لما استخلف عثمان، ابتاع منازل ووسعه بها. وبنى الأروقة للمسجد، فيما ذكر الأزرقي والماوردي وغيرهما".

الرواق السعودي

اهتمت المملكة العربية السعودية ممثلة بقيادتها الرشيدة بالحرمين الشريفين، وقد تجلى ذلك في المشروعات الضخمة والتوسعات الكبرى التي قامت بها الدولة على مر السنين في عصر الدولة السعودية الأولى، ومنذ عهد الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود -رحمه الله-، حتى وقتنا الحاضر في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود حفظه الله؛ إذ إنه وخلال فترة وجيزة، حدثت للمسجد الحرام نقلة معمارية كبرى، تجلت في توسعاته، والذي يعد من أكبر المباني على مستوى العالم من حيث الحجم والمساحة، والطاقة الاستيعابية، والعناصر المعمارية المكتملة، والخدمات المساندة، والتي من ضمنها "الرواق السعودي".

فمنذ عهد الملك عبدالعزيز بدأت في المسجد الحرام إصلاحات كبرى، تمثلت في تطوير مبانيه القائمة وإصلاحها، وكذلك في نطاق المسعى وسقفه وتطويره، ولكن بعد أن بدأت أعداد الحجاج في الازدياد رأى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -رحمه الله-، الحاجة لعمل "رواق سعودي" جديد، وتوسعة كبرى جديدة في المسجد الحرام، تكون خلف الرواق العباسي، وقد أمر بالبدء بالتخطيط لهذه التوسعة، ومعرفة الحاجة للمساحات التي سيتم استخدامها لـ "الرواق السعودي".

وبدأ العمل بالرواق السعودي في عهد الملك سعود عام (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م)، الذي أعلن في بيان تاريخي عن تحقيق رغبة الملك عبدالعزيز بالبدء بتوسعة المسجد الحرام، واستمر بناء الرواق في عهد الملوك سعود وفيصل وخالد -رحمهم الله- بين عامي (١٣٧٥ / ١٣٩٦هـ - ١٩٥٥ / ١٩٧٦م)، كما استمر تطويره حتى وقتنا الحاضر.

مكونات الرواق

تبلغ مساحة الرواق السعودي حالياً (٢١٠) آلاف متر مربع، ويستوعب (٢٨٧) ألف مصل، و(١٠٧) آلاف طائف في الساعة تقريباً، ويعد الرواق السعودي بشكله الجديد استكمالاً لعقد الرواق العباسي،

ويتكون من أربعة أدوار: دور الصحن، والدور الأرضي، والدور الأول، و"الميزانين".

ويمتد الرواق السعودي من الناحية الغربية، حيث أمر الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله، بإضافة جديدة له، وقد بلغ عدد الأعمدة في هذه التوسعة حوالي (١٥٠٠) عمود مكسوة بالرخام الأبيض، إضافة إلى عدد من القباب على سطح الأروقة، وفي عهده رحمه الله، أصبحت مساحتها حوالي (٣٦٥) ألف متر مربع، والطاقة الاستيعابية حوالي مليون مصل، وتضمن الرواق السعودي بعد هذا الامتداد باباً جديداً وهو باب الملك فهد.

وامتدت مساحة الرواق السعودي من الجهة الشمالية بإضافة جديدة بدأت في عهد الملك عبدالله بن عبدالعزيز رحمه الله، واكتملت في عهد الملك سلمان بن عبدالعزيز حفظه الله، حيث أصبحت مساحة المسجد الحرام حوالي مليون متر مربع، بطاقة استيعابية قدرها نحو مليوني مصل، وتضمن عددًا كبيرًا من الأعمدة، وباباً يحمل اسم باب الملك عبدالله بن عبدالعزيز.

وعلى مر السنين أكمل ملوك المملكة العربية السعودية بناء الرواق السعودي، الذي حوّل مساحة المسجد الحرام من حوالي (١٢) ألف متر مربع إلى أكثر من مليون متر مربع، وارتفعت طاقته الاستيعابية أضعافاً مضاعفة عما كانت عليه.

مفخرة سعودية

يعدّ الرواق السعودي من مفاخر الدولة السعودية، ومن مآثر العمارة السعودية للمسجد الحرام، وأصبح يمثل هوية خاصة بالمسجد الحرام، ترسخ اهتمام قادة الدولة السعودية بعمارة الحرمين منذ الدولة السعودية الأولى، مروراً بالملك عبدالعزيز طيب الله ثراه، والملوك من بعده، الذين انعكس اهتمامهم بشكل واضح على عمارة الحرمين الشريفين، بشكل لم يشهده التاريخ من قبل.

رئيس المركز الثقافي للبحوث والدراسات بتشاد:

للحج مكانة عظيمة في ضمير المسلم الإفريقي

حوار: توفيق محمد نصر الله

الدكتور حقار محمد أحمد اسم بارز في جمهورية تشاد، وله حضور في فرنسا بحكم وجوده الموسمي هناك، وهو رئيس المركز الثقافي للبحوث والدراسات الإفريقية والعربية بتشاد، شارك في العديد من مؤتمرات رابطة العالم الإسلامي في مكة وتشاد وأوروبا.

استضفناه في هذا الحوار وناقشنا معه المهام التي يضطلع بها المركز الثقافي للبحوث والدراسات بتشاد، بصفته رئيسًا وأمينًا عامًا للمركز. ولما كان ضيفنا صاحب بحوث علمية ومؤلفات، فقد تباحثنا معه حول الأسباب العلمية التي جعلته يبحث مثلاً في موضوع الوقف الإسلامي مع أن الوقف ليس بالثقافة الشائعة في إفريقيا، وسألناه عن نشاط التعريف بالإسلام في إفريقيا من خلال عضويته في لجنة الدعوة في إفريقيا، وغير ذلك من الموضوعات المهمة التي ستتابعها عزيزي القارئ عبر هذا الحوار الشائق:

• نسأل ونحن نعيش أجواء موسم الحج عن مكانة الحج إلى بيت الله الحرام في ضمير المسلم الإفريقي؟

كي نتعرّف على مكانة الحج إلى بيت الله الحرام في

ضمير المسلم الإفريقي؛ علينا أن ننظر إلى ما يحدثه الحج في المكانة الاجتماعية للحاج من إفريقيا، إنه يزداد شأناً ومكانةً. والإفريقي المسلم الذي تمكّن من أداء فريضة الحج يصبح له وضع اجتماعي خاص عند العامة والخاصة. ألا ترى أن لقب (الحاج أو الحاجة) يُقدَّم على كل الألقاب حتى غيَّب لقب الإمبراطور والرئيس في إفريقيا، وعلى سبيل المثال: الحاج أحمد سيكاتوري رحمه الله، رئيس غينيا كوناكري، والحاج حسيني كونتشي رئيس النيجر رحمه الله، والحاج شيخو شيغاري رئيس نيجيريا الاتحادية رحمه الله.

واحتراماً لأداء الحج المبرور الأغلبية الساحقة من حج من الأفارقة يتجنب الوقوع في المعاصي، وهو في حالة يقظة تامة مدى الحياة، لعدم الوقوع في المعاصي صغيرها وكبيرها، ولانتشار مفهوم عند الأفارقة بأن المعصية تلغي أداء الحج وأجر الحج. والحاج يصبح شخصية مرجعية في المجتمع الإفريقي.

يذكر الباحث الفرنسي رونيه كايه(René Caillé) في بحثه (المكانة الروحية والاجتماعية للحج والعمرة في المجتمعات الإفريقية) أن من دلائل مكانة الحج والعمرة في المجتمعات الإفريقية أن الحاج أو الحاجة يتحول من شخص عادي قبل الحج إلى شخص محترم ذي مكانة تسمو فوق كل الطبقات في المجتمع، ما لم ينزلق إلى اقتراف شيء ممنوع حسب الشريعة الإسلامية والنظم الأخلاقية للإسلام والمسلمين.

ومن دلالات مكانة الحج لدى مسلمي إفريقيا أن ثلاثة من كل عشرة مواليد من الإناث في إفريقيا يحملن اسم حاجة. ولعظم شأن الحج إلى بيت الله الحرام في ضمير المسلم الإفريقي، يحدث أن عددًا كبيرًا من نصارى إفريقيا من جيران الحاج يدخلون في دين الله. لهذه المكانة الجليلة للحج لدى الأفارقة، فإنهم يعظمون شعيرة الحج، ويحترمون الدولة القائمة على أمر تنظيم الحج وتوفير الضيافة الكريمة للملايين من ضيوف الرحمن؛ المملكة العربية السعودية، حرسها الله ووفق القائمين عليها.

• «وثيقة مكة المكرمة» خارطة طريق للحوار بين أتباع الأديان والمعتقدات والملل والطوائف ونشر ثقافة السلام والتسامح والعيش المشترك وقبول الآخر في العالم

• لا يمكن للدعوة الإسلامية أن تنجح في إفريقيا ما لم تكن مدعومة بالإعلام الإسلامي الهادف

• نرجو إعطاء قراء مجلة الرابطة نبذة عن المركز الثقافي للبحوث والدراسات الإفريقية بتشاد بصفتكم رئيسًا وأمينًا عامًا له؟

أشكر جزيل الشكر -بعد شكر الله تعالى- مجلة رابطة العالم الإسلامي على هذه الاستضافة، وأنا فخور بهذه الاستضافة. أما عن المركز الثقافي للبحوث والدراسات الإفريقية والعربية بتشاد فأقول: رأى المركز النور عام ٢٠٠٥م في دولة تشاد، وطبيعته قارية، تعنى بالبحوث في الشأن الإفريقي والعربي. ويهدف المركز إلى إحياء اللغة والثقافة المكتوبة للقارة الإفريقية، كما يهدف المركز إلى نشر ثقافة السلام والتسامح والعفو والعيش المشترك وقبول الآخر، وإعطاء قيمة خاصة للحوار ومكافحة التطرف والإرهاب بالوسائل الثقافية والتعليمية والتربوية والإعلامية. ويدعو المركز إلى نبذ الطائفية والحزبية ومواجهة الفرق الهدامة ومكافحة القبلية والعشائرية في المجتمعات الإفريقية، وتطوير التعليم العربي الإسلامي في إفريقيا جنوب الصحراء.

• لكم بحث عن الوقف الإسلامي، ومعروف أن الوقف ليس بالثقافة الشائعة في إفريقيا، فما الدوافع التي جعلتك تبحث في هذا الموضوع؟

الوقف الإسلامي له أهمية عظيمة في حياة المجتمع الإسلامي. والواقع المعاش أثبت أهمية ذلك عبر التاريخ، وهو كان موجودًا في البيت الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى، ويغطي كافة أنواع البر والتعاون في المجتمع.

وللحاجة الماسة للإسلام في أرض الهجرة الأولى الذي يمثل ستمائة مليون مسلم من مليار ومائتي مليون من سكان إفريقيا اليوم لتمويل محلي مستقل يتسم بالديمومة، ولضرورة إحياء هذه السنة الحسنة في إفريقيا والمحافظة على الإسلام وقيمه العقدية والاجتماعية والتعليمية والثقافية والإنسانية، ولصعوبة التمويل الخارجي للأعمال الإسلامية في القارة، خصوصًا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، قمت بكتابة هذا البحث في هذا المجال الحيوي الهام في حياة المجتمع الإسلامي. وكما تفضلتم في السؤال فإن ثقافة الوقف وقعت في غيابة النسيان في القارة الإفريقية، والغرض هو تذكير قادة الإسلام والمسؤولين في قيادة الدول الإفريقية وقادة المؤسسات الإسلامية المختلفة بأهمية الوقف الإسلامي وفاعليته المجربة في تخفيف الفقر والمرض والجهل، والمحافظة على التعاون والتكاتف والتكافل في المجتمع، وتطوير التنمية الاقتصادية والاجتماعية المستدامة، وتفجير الطاقات، وتوفير العمل لأفراد المجتمع عامة والشباب العاطل من حملة الشهادات وتطوير التعليم في القارة.

وإذا كانت دولة الفاتيكان اليوم من أغنى دول العالم، فالسبب أوقاف الكنائس في العالم، فهو أمر معروف للجميع في الغرب. ومن خلال هذا البحث اكتشفت فرصًا كثيرة لنجاح الأوقاف في إفريقيا -بإذن الله تعالى- وهناك تجارب ناجحة في هذا المجال في المملكة العربية السعودية، وكذلك في جنوب شرق القارة، وفي غيرهما من بلاد العالم الإسلامي، مثل السودان، حقن الله دماء أهله الغالين.

• عالجتم أيضًا موضوع أثر الإعلام في الدعوة في إفريقيا، وهذا الموضوع يستحق التحدث عنه؟

هو بحث شـــاركت به في أحد ملتقيات لجنة الدعوة في إفريقيا بالمملكة العربية الســـعودية -حرسها الله والقائمين عليها من كل شـــر-، وهذا الموضوع يســـتحق فعلاً حديثاً مطـــولاً لأهميتـــه، فالأديان والأفكار والتغيير في توجهات الناس سلبا أو إيجابا يكون بالإعلام، خصوصًا في العولمة التي قضت على الحـــدود الجغرافية وجعلت الناس فـــي مجال موحد زمانًا ومكانًـــا. والقارة الإفريقية ليســـت بمعزل عن هذا مع السيطرة شبه الكاملة للإعلام الآخر على القارة الإفريقية، ينبه البحث أبناء الأمة الإسلامية فـــي القـــارة إلى أهميـــة الإعلام واختيار الأنســـب والأنفع لأبناء الإسلام، والتحذير من الجوانب السيئة في الإعـــلام، والدعوة إلى تطويـــر وتفعيل الإعلام الإســـلامي التقليدي، وإضافة كل ما هو مفيد من الإعلام الرقمي والتقنية الحديثـــة. وأهمية الإعلام في الإســـلام واضحة مـــن فعل رســـول الله صلى الله عليه وســـلم، عندما خلع بردته الشريفة على الشـــاعر كعب بن زهير رضي الله عنه، والدعوة في إفريقيا اليوم يقع على عاتقها:

- تصحيح مـــا علق بعقيدة بعض المســـلمين من الشوائب.

- رفع الجهل بالإسلام لدى عامة الناس.

- مكافحة التشـــدد والتطـــرف والإرهاب النابع عن جهل بعض المســـلمين بحقيقة دينهم الإسلامي؛ دين الســـلام والرحمة والتســـامح والعفو والعيش المشترك وقبول الآخر بغض النظر عن الدين والعرق والموطن والثقافة واللغة.

- مواجهة الفرق الهدامة.

- مواجهـــة الخـــوارم الأخلاقية لدى بعـــض الناس والأمراض الاجتماعية القديمة والجديدة.

- توجيـــه الشـــباب المســـلم وزرع مخافـــة الله والاســـتقامة فيهـــم، ومنعهـــم مـــن الوقوع في

• الوقف الإسلامي له أهمية اجتماعية وإنسانية وخيرية تعاونية واقتصادية عظيمة في حياة المجتمع الإسلامي في كل زمان ومكان

شـــبكات أصحـــاب الفتـــاوى الملتبســـة المنحرفة والانخراط في الحـــركات الإرهابية المارقة التي تدعي الدفاع عن الإسلام والمســـلمين ومصلحة الأوطان والعباد واستخدام مصطلح الجهاد في غير موضعه. والدعوة الإســـلامية في كل هذه المجالات لا يمكن أن تنجح في إفريقيـــا ما لم تكـــن مدعومة بالإعلام الإســـلامي الهادف المنطلق من الأسس الإسلامية الصحيحة، والاســـتفادة من تقنية الإعلام الحديث في جوانبه التي ليس فيها محذور شـــرعي حسب الكتاب والسنة النبوية.

• هل تتكرمون بتقديم نبذة عن اللجنة الدولية للحوار الإسلامي المسيحي المنبثقة عن جماعة الصداقة الإسلامية المسيحية بفرنسا بوصفكم رئيسًا لها؟

اللجنـــة الدولية للحوار الإســـلامي - المســـيحي منبثقـــة عـــن منظمـــة الصداقـــة الإســـلامية المسيحية، تأسست بمبادرة من الأب ميشيل لولونق (Michel Lelong) من شـــركة الآباء اليســـوعيين والممثل السابق لبابا روما في باريس، صاحب الكتاب المنصف للإسلام والمســـلمين والعرب (إذا شاء ربك) (Si Dieu lšavait voulu)، الصادر في عام ١٩٩٢م. واللجنة هـــي جهاز علاقـــات خارجيـــة للمنظمة، وعُينت أنا رئيسًـــا لها منذ عـــام ١٩٩٥م إلى اليوم، وهي التي رافقت وفد رابطة العالم الإســـلامي في جولته الأوروبية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

• يهدف المركز الثقافي للبحوث والدراسات الإفريقية والعربية بتشاد إلى إحياء اللغة والثقافة المكتوبة للقارة الإفريقية قبل وصول المستعمر إلى إفريقيا

• ما الأسباب التي دفعتكم للتخصص في الأديان المقارنة في مرحلة الدكتوراه من معهد الآباء اليسوعيين لإعداد القساوسة في فرنسا وبلجيكا؟

الأمر الذي دفعني إلى التخصص في هذا المجال هو عندما كنت طالبا في جامعة فرنسوا رابيليه (Université François Rablais) بمدينة تور في فرنسا بكلية الحقوق نهاية مرحلة الدكتوراه في القانون المدني الفرنسي، أثار أحد الأساتذة الكارهين للإسلام والمسلمين قضية صحة نبوة النبي رسول محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: إن الإسلام ما هو إلا هرطقة مسيحية، وأنا تصديت للدفاع عن ديني وبدأت أقيم الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، فيقولون لي ما هذه الأدلة؟ إنها تقف في حدود اعتقادك أنت، فلا نبوة بعد رسول ربنا عيسى القائل: (أنا Alfa وGama)، (أي أنا الألف والباء). وكنت أعلم في إطار الثقافة العامة بوجود شخص ملقب بالنبي، يأتي من بعد عيسى عليه السلام، وجميع علماء تفسير التوراة والإنجيل قالوا (الله أعلم به)، بما فيهم جماليل الملقب بأعظم مفسر للكتاب المقدس لكل الأوقات، والقديسة تيريزة دابيلا (Thérèse d ŠAvila) المؤسسة للصوفية النصرانية صاحبة أغاني الحب إلهي، فقررت التسجيل في معهد لومان فيتيه (Loumanvytea) لإعداد القساوسة والرهبان في لوفيه لانوف (Louvin La Neuve)، لأقيم أدلة على صحة نبوة النبي الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مما عندهم، بما لم تمتد إليه يد التحريف أو التصحيف، وقد حدث وتحقق ذلك بإذن الله تعالى.

• وبماذا خرجت من بحثك في علم الاجتماع السكاني عن المدينة العربية في إفريقيا جنوب الصحراء؟

سبب إقدامي على هذا البحث هو أننا كنا في مقر معهد تحضر العالم العربي التابع لجامعة فرنسوا رابيليه، وقد حصل هجوم وانتقاد للعرب بسبب الحروب في الوطن العربي، وحروب القذافي في إفريقيا، فأنا قلت لهم إن العرب لهم فضل كبير على إفريقيا فأنكروا عليَّ ذلك. وأشرت إلى بعض المآثر العربية في القارة، فقال أحدهم: هل تستطيع أن تدافع عما تدعي من خلال بحث علمي بشكل ماجستير؟ فإذا قبلت ذلك أنا أشرف على البحث، وهو من الخبراء في الشأن الإفريقي... قلت له هذا ليس مجال تخصصي ولكني أبدأ فيه، أما ما خرجت به من بحثي فيمكن تلخيصه فيما يلي:

١- ما من مدينة هامة ولا قرية عامرة ولا سوق مشهورة في إفريقيا جنوب الصحراء إلا من صنع العرب.

٢- جلب العرب صناعة الحديد إلى إفريقيا.

٣- جلب العرب إلى إفريقيا زراعة النخيل والتين والزيتون والعنب والقمح والقطن.

٤- جلب العرب إلى إفريقيا من الحيوانات الجمال والحصين وعلَّموا الأفارقة ركوب الخيل.

٥- جلب العرب إلى إفريقيا التعامل بالعملة عند البيع والشراء.

٦- بفضل الحرف العربي تحولت اللهجات الإفريقية إلى لغات قبل مجيء الغازي الغربي لإفريقيا الذي استبدل الحرف اللاتيني بالحرف العربي وهناك أمور كثيرة.

• ولعلكم تلمحون إلى نشاط لجنة الدفاع عن حقوق الأقلية المسلمة بوصفكم رئيسًا لها لدى المحكمة الأوروبية الموحدة في استراسبورغ بفرنسا؟

عندما تأسست المحكمة الأوروبية الموحدة في ١٢ يناير ١٩٥٩م بادر مندوب النمسا عام ١٩٩٧م باقتراح إنشاء لجان فنية للدفاع عن حقوق الأقليات الدينية والفكرية والمذهبية والطائفية في الساحة الأوروبية، وتمت الموافقة على المقترح بأغلبية أعضاء المحكمة، فبحثت المحكمة عن أشخاص مناسبين لرئاسة تلك اللجان، فوقع الاختيار عليَّ في عام ١٩٩٧م لرئاسة هذه اللجنة، وأما نشاط اللجنة فهو:

١- استلام الملفات القضائية والشكاوى التي يفضل المواطن الأوروبي المسلم والمقيم بإقامة سارية المفعول رفعها إلى المحكمة الأوروبية بدلا عن إحدى المحاكم في الدول الأعضاء.

٢- تولي الاستئناف للقضايا التي خسر فيها المواطن الأوروبي المسلم أو المقيم.

٣- إجراء البحوث الميدانية القانونية الاجتماعية للقضايا الشائكة.

٤- تقديم دراسات وتقارير دقيقة عن بعض القضايا التي يعتبر المتهم فيها جانيا حسب القانون الأوروبي إلى رئيس المحكمة لإعادة النظر في الحكم الصادر وللاستفادة من لائحة المحكمة التي تقرر تخفيف الحكم وإلغاءه إذا كان ما أقدم عليه المواطن أو المقيم من فعل أو قول مما يعتبر مخالفة قانونية، له صلة بأوامر ونواهي دينه.

• بوصفكم مطلعًا على أحوال المسلمين في المجتمع الأوروبي، كيف ترون جهود معالي الشيخ الدكتور محمد بن عبد الكريم العيسى الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، في معالجة مشكلات الأقليات المسلمة في أوروبا؟

أشكر المجلة على هذا السؤال الهام عن جهود معالي الشيخ الدكتور محمد بن عبد الكريم العيسى في معالجة مشكلات الأقليات الإسلامية في أوروبا، ويسرني أن أقول إن جهود معالي الدكتور كبيرة وكثيرة ومثمرة في عدة مجالات في أوروبا، ولا سيما مجال الخوف من الإسلام والمسلمين (الإسلاموفوبيا)، خصوصا بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، لوجود إعلام مجند لتشويه صورة الإسلام والمسلمين على الدوام، وغياب إعلام إسلامي يعمل بالذكاء لتفنيد الزيف والتلفيقات وقلب الحقائق. في هذا الواقع جاءت اتصالات الشيخ الدائمة بعقلاء أوروبا وقادتها الدينيين والسياسيين من صناع القرار والمؤسسات الأوروبية الكبرى وصناع الرأي العام، وجولاته وتنظيم المؤتمرات للرابطة في أهم الدول الأوروبية، ومواصلة الدكتور محمد بن عبدالكريم مع قادة المؤسسات الإسلامية الأوروبية الذين يتسمون بالوسطية والاعتدال في الساحة الأوروبية، ودعم مشاريع الأقليات بذكاء وتنسيق دقيق مع سلطات الدول التي بها الأقليات الإسلامية، وإبراز جهود الرابطة في مكافحة التطرف والإرهاب والتزامها بقيم الوسطية والحوار بين الأديان والمعتقدات والحضارات والثقافات والتسامح والعفو والعيش المشترك، وقبول الآخر؛ بغض النظر عن الدين والعرق والموطن والثقافة واللغة "ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا". والرابطة تسير على نهج الله وسنته الحكيمة في الكون، ومعالي الدكتور تمكن بحول الله من إيصال رؤية الإسلام الإنسانية ووحدة الدين بالرغم من اختلاف الشرائع والنظم الاجتماعية، ورؤية الإسلام في وحدة الجنس البشري على الرغم من التعدد الثقافي واللغوي "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، ونتجت عن هذه الجهود الأمور التالية:

١- التخفيف من موجة كراهية الإسلام والمسلمين لدى العامة والخاصة في أوروبا.

٢- إعادة التعريف بالإسلام والمسلمين.

٣- التعريف بجهود المملكة العربية السعودية في مكافحة التطرف والإرهاب ونهج الوسطية والاعتدال وهو نهج الإسلام الحقيقي.

٤- ظهور تغيير في أسلوب تعامل السلطات مع الأقليات الإسلامية في أوروبا ومؤسساتها ودور عبادتها وإعطاء البلديات في معظم المدن الأوروبية أراضي لبناء دور العبادة والتعليم.

٥- تقوية الصلة بين الأقليات الإسلامية والسلطات المحلية والاتحادية في الساحة الأوروبية لأن تلك السلطات ترى في معالي الدكتور محمد الصورة التي فرضت احترامها ومصداقيتها على العالم في عالمنا اليوم، ونسأل الله أن يديم تلك الجهود المثمرة.

• وكيف تنظرون إلى جهود رابطة العالم الإسلامي في خدمة الإسلام والمسلمين؟

إن رابطة العالم الإسلامي هي الواجهة الدينية والدعوية والتوجيهية والإرشادية لمسلمي العالم، وكسبت ثقة الأمة الإسلامية حكاما ومحكومين وعلماء وعامة الناس لجهودها في خدمة الإسلام والمسلمين والإنسانية بدعم سخي مستدام من المملكة العربية السعودية -حرسها الله والقائمين عليها- منذ تأسيسها وإلى اليوم. وكانت الرابطة ولا تزال على قدر جغرافية العالم الإسلامي، وهمها الوصول إلى حيث حاجة المسلم في جميع مجالات الحياة، والرابطة أصبحت رقماً مهماً ومرجعية عالمية في الحوار بين الأديان والثقافات والتسامح والتعايش السلمي وقبول الآخر، ومصدر أساسي لخدمة الإسلام والمسلمين تحت ظلال التوجيهات الحكيمة والرشيدة لخادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود حفظه الله ورعاه،

وولي عهده الأمين رئيس مجلس الوزراء، صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان آل سعود، حفظه الله ورعاه.

• وكيف تقيمون المضامين التي تضمنتها وثيقة مكة المكرمة؟ وما أفضل السبل لنشر تلك المفاهيم التي تضمنتها لغرس القيم والأخلاق النبيلة والتوعية بأهمية التعايش السلمي والتحلي بأخلاق الإسلام مع الناس مهما كانت دياناتهم؟

وثيقة مكة المكرمة تضمن مشروعا متكاملا لضمان حياة كريمة وواقعية مليئة بمعاني الخير والتعاون والتعايش السلمي وقبول الآخر بغض النظر عن الدين والعرق والموطن والثقافة واللغة، ومشروع إقامة عالم متسامح وعادل وخال من التطرف والتعصب وهو مشروع إكرام الإنسان واحترام حقوقه وإنسانيته. ولقد سمي هذا المشروع في قسم القانون الاجتماعي في المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان بمشروع (إنقاذ البشرية من التعصب المهلك والخلافات المؤدية إلى الأزمات المستدامة). وهذه الوثيقة يجب أن تكون خارطة طريق للحوار بين الأديان والمعتقدات والملل والطوائف، ونشر ثقافة السلام والتسامح والعفو والعيش المشترك وقبول الآخر لكل الدول الإسلامية في العالم.

• قدتم لجنة الدفاع عن اللغة العربية في المؤتمر الوطني المستقل في تشاد الذي انتهى بالاعتراف باللغة العربية لغة رسمية ثانية لدولة تشاد، كيف تقيمون المرحلة؟

اللغة العربية هي وسيلة التخاطب الوحيدة المشتركة بين كافة أبناء تشاد؛ من مسلمين ومسيحيين وعرب وزنوج، على الرغم من وجود لهجات كثيرة في البلاد. وصول العربية إلى أرض تشاد قديم سابق للإسلام، وقد نقلها عرب اليمن السعيد أصل كل العرب، الذين وصلوا إلى البلاد بعد انهيار سد مأرب. واللغة العربية قواها الإسلام الذي دخل تشاد عام ٦٦٦م على يد نفر من أصحاب سيدنا عقبة بن نافع رضي الله عنه. دخلت العربية طور الاستخدام الكتابي منذ تلك الفترة إلى وقت الغزو الفرنسي ابتداءً من عام ١٨٩٤م واستبدلت بها الفرنسية. وظل المسلمون يطالبون بأن تكون رسمية واستخدامها في الدولة مثل اللغة الفرنسية الغازية. وعند انعقاد المؤتمر الوطني المستقل يوم ١٥ يناير ١٩٩٣م طُرح موضوع اللغة العربية في جدول أعمال المؤتمر بصعوبة بالغة بسبب المعارضة الشديدة من قبل بعض التشاديين الذين كانت نسبتهم في المؤتمر ٧٥٪، وكما أن نسبتهم في الوظيفة العامة ٩١٪ في ذلك الوقت بسبب تخلف التعليم العربي الإسلامي على الرغم من جهود أبي نهضة اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في تشاد الشيخ عليش عووضة رحمه الله تعالى. ودارت في المجلس الوطني معركة كلامية كبيرة بين المنادين باللغة العربية والمعارضين لها، دامت ثلاثة شهر وانتهت بتوصية الاعتراف بها في المؤتمر لغة رسمية لدولة تشاد إلى جانب الفرنسية. وظهرت النتيجة النهائية في المادة التاسعة من دستور٣١مارس ١٩٩٦م لجمهورية تشاد. والآن في المادة الثالثة من الميثاق الوطني ليوم ٢٢ أبريل ٢٠٢١م. وبعد ٣١ مارس ١٩٩٦م ولدت معركة أخرى جديدة وهي معركة تطبيق الثنائية اللغوية والمساواة بين اللغة العربية والفرنسية، والدولة أنشأت قسما لتطبيق الثنائية اللغوية في الأمانة العامة للجمهورية والمركز الثقافي للبحوث والدراسات الإفريقية والعربية بتشاد مع عدد من مؤسسات الدفاع عن اللغة العربية، التي تخوض معركة مستدامة لتطبيق الثنائية اللغوية الفعلية في التعليم والإدارات والوظيفة العامة والقضاء والإعلام والوثائق وكل نشاط يخص حياة تشاد والتشاديين في كل صغيرة وكبيرة.

رحلة الحج من أرخبيل الملايو

بين الماضي والحاضر

بقلم: أ. د. حسن عبد الرازق النقر
أستاذ سابق بمعهد الفكر الإسلامي ـ كوالالمبور

لا توجد سرديات كثيرة للحج من الشرق الأقصى على غرار رحلات المغاربة من الأندلس والمغرب العربي. لم تنضج في آسيا مثل تلك الظروف الثقافية الأدبية والعلمية التي أنتجت رحلات ابن بطوطة والعياشي وابن جبير وغيرهم (أحصى د.عبد الهادي التازي أكثر من مائة رحلة مغربية في كتابه رحلة الرحلات، ٢٠٠٥م).

تقاليد حية:

وتميزت رحلات الحجاج من أرخبيل الملايو والصين بتقاليد حية على المستوى الإنساني لم يبدل فيها الزمن إلا قليلا. صحيح أن الدراسات عنها قليلة، ويذكر التاريخ أن من أوائل حجاج الملايو السلطان رعاية شاه سلطان مالاقا (مالاكا الحالية)، حكم في الفترة من ١٤٧٧ إلى ١٤٨٨م. ويبدو أن الحجاج الملايويين كانوا في ذلك العهد الباكر يسافرون من ميناء مالاقا إلى الصين ويتبعون طريق الحرير في رحلتهم إلى مكة.

وللمقارنة بين حج الملايويين قديما وحديثا اخترنا أنموذجا لرحلة حج نشرها الدكتور أحمد إبراهيم

أبوشوك في مجلة الدارة (مج ٣٤، ع ٤) ضمن مقال بعنوان: التواصل الحضاري بين الحجاز وأرخبيل الملايو ـــ رحلة الحاج عبد الماجد زين الدين إلى الأراضي المقدسة.

ولعل الحافز في الاطلاع على هذه السرديات القليلة المتاحة عن رحلات الحج من أرخبيل الملايو، هو الوقوف على تلك التقاليد الحية التي أشرنا إليها في مفتتح المقال، وهي تقاليد ترجع بجذورها إلى الماضي.

ورحلة زين الدين حديثة نسبيًا (١٩٢٤م)، لكنها تعطي ملامح وافية عن رحلة الحج في ذلك العهد والمقارنة بما آل إليه الوضع في السنوات التالية.

انضباط ذاتي:

معروف عن حجاج أرخبيل الملايو ظهورهم في المشاعر المقدسة بمظهر حضاري يعكس صورة من الاستعداد الذي أنتج قدرًا من الانضباط الذاتي، وهو نتيجة عمل دؤوب من الدورات التدريبية والتوعوية التي يتلقاها الحجاج في بلادهم قبل السفر، تؤهلهم لأداء المناسك بسلاسة وتنظيم.

يدخل الحاج في دورات غير إجبارية، حيث تُنظم لهم رحلات جماعية تقدم دروسًا عملية في أداء المناسك. ويجري إعداد مجسم للكعبة وللجمرات ومكان يمثل بيئة الصفا والمروة.

وحجاج الملايو بالذات مشهور عنهم في تحضيرهم للحج أنهم يهتمون بالتخطيط لكل شيء بإتقان تام، وهم يشرعون في الاستعداد للحج والتحضير لرحلة الحج من وقت مبكر. ويحرصون على أدق التفاصيل، وثمة رمزية لهذا الإتقان هو حرصهم على اقتناء مسبحة من نوع خاص فيها سبع حبات فقط يستخدمونها عند الطواف والسعي ورمي الجمرات.

لا شك أن نماذج المؤسسات الاقتصادية للحج مثل (تابونغ حجي) في ماليزيا مستمدة بشكل أساسي من تقليد حي ظل شائعًا في ادخار نفقات الحج، إذ كانت المرأة الآسيوية عندما تصنع خبزها، تأخذ قبضة من الدقيق فتضعه جانبًا في كيس خاص حتى إذا تجمعت لديها كمية مع مرور الأيام باعتها وحفظت المال إلى أن يجتمع لديها ما يكفي لنفقة الحج.

لم تكن تكلفة الحج سهلة قديمًا، وكما ينقل د. أبو شوك عن الحاج زين الدين فإن السلطات الاستعمارية عمدت إلى عرقلة رحلات الحج بشتى السبل بوضع سقف مالي يجب أن يستوفيه كل مواطن ينوي أداء الحج.

وترتبط رحلة الحج لدى هؤلاء بمواقف عاطفية، وقد شاهد كاتب هذه السطور إبان إقامته في ماليزيا وداع الحجيج في مطار كوالالمبور وتبادل أفراد الأسرة والأصدقاء مشاعر الوداع فيعتنقون بعضهم بعضا ويذرفون الدموع.

تستغرق رحلة الحج بالطائرة في وقتنا الحاضر نحو عشر ساعات، وكانت في السابق تأخذ أشهرًا من الإبحار على السفن تتخللها أهوال البحر المعروفة، ناهيك عن قوافل الجمال قبل ذلك التي كانت تقضي شهورًا من الأهوال في تضاريس متباينة وطقس يتقلب من حر إلى برد.

ولا شك أن المواقف العاطفية التي نشهدها في

مستهل الرحلة الميسرة الحالية، هي بقايا من التقاليد الحية في ذاكرة شعوب الملايو.

ويحرص الحاج على إقامة دعوة على الطعام لأقربائه وأصدقائه ويطلب الصفح والسماح، والدعاء له بالتوفيق في أداء النسك والعودة بسلام.

يذكر الحاج زين الدين طرفًا من استعدادات الحاج في وقتهم وهي تقريبًا نفس الاستعدادات اليوم، يقول: "قبل المغادرة يقوم الحاج بإعداد وليمة، وهي بمثابة محفل لمقابلة الأصدقاء والأقرباء إلى جانب الدعاء بذهابه وعودته بالسلامة".

الحج الصغير والحج الكبير:

يطلقون في ماليزيا اسم الحج الصغير (حج كجيل) على العمرة، وفي القديم كانوا يأتون لأداء العمرة والبقاء في مكة للتزود بالعلم أو للعمل حتى يحين موعد الحج الكبير.

وبذلك تكونت طائفة كبيرة من الجاوة والملايويين في سكان مكة، يشكلون جزءًا من نسيجها الاجتماعي الحالي.

كانت مكة دائمًا مدينة عالمية بمثابة همزة الوصل للتفاعلات العالمية التي تتجاوز بكثير الأنشطة الدينية. وقد يكون ما يخبرنا به الحاج زين الدين في رحلته سنة ١٩٢٤ عن ممارسات الحج وأثرها في مسلمي الملايو قد اختلف كثيرًا، فإن جوهر معاني الحج وآثاره تظل باقية.

لاحظ (روبرت بيانكي) مؤلف كتاب ضيوف الرحمن أن أعداد الحجاج الماليزيين نقص بقدر كبير عندما قامت وكالة الحج بتغيير السفر من البواخر إلى الطائرات في منتصف السبعينيات الميلادية، إذ انخفض العدد في السنة الأولى (١٩٧٥) من ١٦ ألف حاج إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة حاج فقط.

شعر الماليزيون أن رحلة الحج بالطائرة تفقدهم تلك التقاليد الحية والاستمتاع بالبقاء في عرض البحر أسابيع، والتزود بالمحاضرات والدروس.

ثم ارتفعت معدلات الحج بعد أن تكيَّف الماليزيون مع الوضع الجديد الذي وفر راحة أفضل وأمانا أكثر.

بين الماضي والحاضر:

الساعات المعدودة التي يمضيها المسافر للحج على الطائرة في وقتنا الحاضر قد تقل بكثير عن

الساعات الطويلة التي كان يقضيها الحاج في الحِجر الصحي بجزيرة كمران، أو تضاهي الساعات التي كان يقضيها الحاج بعد النزول من الباخرة إلى سنبك صغير يحمل القادمين إلى الميناء وإجراءات الجمارك وتسلم العفش حتى الوصول إلى مكان الإقامة المؤقتة في جدة.

وهكذا تبدو مفارقة كبيرة بين مشاهدات الحاج زين الدين في مدينة جدة عام ١٩٢٤م وما بين مشاهدات الحاج الماليزي في وقتنا الحاضر.

في الماضي من خلال ما ينقله الحاج زين الدين هنالك شوارع جدة "المعفرة والمتسخة والضيقة، ولا يوجد بينها شارع مستقيم واحد غير شارع أو شارعين"... "وحشود الذباب المنتشرة في كل مكان حتى في المتاجر، وأسراب النامـوس... وفوق هذا وذاك الماء الذي يدفع الحاج له بسخاء لم يكن على المستوى المطلوب. لكن يجب أن نذكر أن المياه في الحجاز باردة ومنعشة لأنها تُبرد في دوارق فخارية".

كانت رحلة معاناة من جدة إلى مكة على ظهور الجمال. تستغرق الرحلة ليلتين مع استراحة في بحرة.

ركب الحاج زين الدين على (الشقدف) المربوط على ظهر الجمل، وهو عبارة عن كرسيين، يجلس شخصان عليه، كل واحد منهما على جانب، وعليهما أن يحافظا على التوازن الذي قد يختل، فيضطر الجمَّال أن يطرق على الشقادف طول الليل يوقظ النائمين وهو يصيح بهم "ميزان ميزان".

صورة ديمغرافية لحجاج ماليزيا:

رصد كتاب (ضيوف الرحمن) ظاهرة غلبة نسبة الإناث في حجاج ماليزيا التي تتجاوز ٥٣٪ وتصل أحيانًا إلى ٥٥٪، وهي ظاهرة تحتاج إلى تفسير. من المعروف أن نسبة الإناث من بين حجاج العالم تكون في حدود ٣٥٪.

ولوحظ أن الحجاج الماليزيين معظمهم من متوسطي العمر ما بين الثلاثين والخمسين، ويندر وجود حجاج مسنين.

الوضع الصحي قديما وحديثا:

يذكر الحاج زين الدين لمحة عن الوضع الصحي في ختام رحلته، يقول: "وفيما يخص صحة الحاج فإن عام ١٩٢٤م كان أسوأ عام بالنسبة للحجاج الملايويين، لأن معدل الوفيات في أوساط الذين سجلوا في القنصلية البريطانية في جدة قد بلغ ١٥٪ خلال ستة أشهر.

والصحيح أن النسبة كانت أعلى من ذلك، إذ بلغت ١٧٪ من جملة الحجاج، إذ بلغ المتوفون ٤٥٠ حاجًا من ٣٣١٧ حاجًا، وهي نسبة كبيرة، مقارنة بالسنوات التي أعقبت وصول الملك عبد العزيز إلى الحجاز وما تشهده الإجراءات الصحية من تقدم ملموس عامًا بعد عام.

إن نظرة على الخدمات الصحية في حج عام ١٤٤٣هـ لتدلنا على مستوى العناية الفائقة التي توليها الحكومة السعودية لضيوف الرحمن. فمثلا كان هناك (٢٣) مستشفى داخل مكة والمشاعر المقدسة، و(٩٧) مركزا إحصائيا، هذا إلى جانب سيارات إسعاف بلغ عددها (٥١١) سيارة، و(٦) طائرات إخلاء، وقد أجريت خلال أيام الحج عمليات جراحية بلغ عددها (٢٩٤) عملية.

وختامًا، فإن الاتصال الثقافي الذي حدث بسبب الحج جدير بأن يثير موضوعات للدراسة. ولعلني أفتح الطريق لمزيد من الدراسة بهذه العجالة، ويكفي أن نعرف أنه منذ القرن السابع الميلادي يتردد على ألسنة طلبة العلم في جاوة وأرخبيل الملايو تعبير شائع هو قولهم: إذا أردت أن تكون عالمًا، فتعلم في مكة.

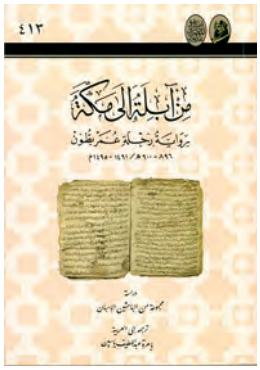

"من آبلة إلى مكة"

رواية رحلةِ عُمَر بَطّون

إعداد: د. محمد تاج العروسي

كتاب جديد صادر عن دارة الملك عبد العزيز، وهو ترجمة عربية لـ "رحلة بطـون" ورفيقه محمد دِل من مدينة آبلة إلى مكة المكرمة في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، الموافق للعاشر الهجري. وفيه تفصيل للرحلة التي استغرقت أكثر من أربعة أعوام، تعرَّفَا خلالها على أوضاع المسلمين في الدول التي مرَّا بها، كما أنهما اكتشفا أماكن تاريخية مهمة تخص المسلمين والمسيحيين معا خلال التجوال في أصقاع متباينة على ضفتي البحر الأبيض المتوسط.

يحتوي الكتاب كذلك على دراسة مفصلة لأوضاع المسلمين القشتاليِّين في أواخر العصور الوسطى، ولمحة عن رحلات الحج من شبه الجزيرة الإيبيرية إلى مكة المكرمة، وحديث مقتضب عن المغزى الروحي للحج بالنسبة للمسلمين في إسبانيا، وذكريات عن الأحداث المصاحبة لرحلة "عمر بطون ورفيقه"، وعن انطباعاتهما عن البلدان التي مرَّا بها أثناء الرحلة، وهي: "تونس، وإسطنبول، وحلب، ودمشق، والقدس، والقاهرة، وسينا، وجدة، وصولا إلى مكة المكرمة".

والأخطار التي اكتنفت هذه الرحلة، ذهاباً وإياباً.

أعد هذه الدراسة فريق من الأساتذة الباحثين في جامعة "بلد الوليد"، المختصين في دراسة تاريخ المسلمين في إقليم قشتالة عامة، والمتتبعين أحوال المدَجَّنين خاصة، أي الذين استطاعوا الحفاظ على الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية إبَّان سقوط الأندلس وبعده، رغم محاولة تنصيرهم بالوسائل المختلفة.

وبيَّنت الدراسة كذلك بعض الخصائص التي تتمتع بها هذه الأقلية المسلمة بالرغم من عيشها في محيط غير إسلامي؛ حيث استطاعت أن تمارس شعائر دينها، وأن تحافظ على بعض العادات النابعة من الإسلام في وسط مجتمع غريب عن دار الإسلام، وأن تحافظ كذلك على المظهر الإسلامي، وذلك من خلال تشييد المساجد، والمقابر، والحمامات، ومجازر الذبح الحلال، والاحتكام إلى الفقه الإسلامي في شؤونهم القضائية الداخلية.

وبينت الدراسة كذلك بأن هذه الأقلية تنتظم ضمن مجموعة يطلق عليها الجماعة "aljama"، كما أنها تُحافظ على علاقتها بالسلطات المسيحية في المدن التي تقطنها، ولها سلسلة من الوظائف التي تشمل وظيفةَ القاضي، ومراقبين يُعنون بالشؤون الاقتصادية، ولديهم مسؤولٌ عن إقامة الصلوات، وفقيهٌ متضلِّع في الفقه الإسلامي، يعمل بمنزلة كاتب عدل، أو كاتب عمومي، ومعترف به من قبل القضاء المسيحي. ورغم ما حدث من التلف الكبير في بعض صفحات المخطوط، ووجود بقع أو ثقوب من أثر الرطوبة في بعض الصفحات مما زاد من صعوبة قراءة بعض الجُمَل، أو الكلمات، أو انقطاعٍ في سردِ القصة، فالنص المحفوظ يُقدِّم تصورًا شبه كاملٍ عن حج المسلم الآبيلي، منذ لحظة خروجه من آبلة حتى وصوله إلى مكة، وعودته إلى إسبانيا عبر البحر الأبيض المتوسط.

رحلة الحج من شبه الجزيرة الإيبيرية:

تناول الكتاب تحت هذا العنوان الصعوبات التي تواجه من يرغب الحج من مسلمي إقليم قشتالة وهي:

- العوائق الناجمة عن الحالة الاجتماعية والاقتصادية.
- الخوف من تعرض ممتلكاتهم للضياع فترة غيابهم عن البلد لأداء فريضة الحج.
- صعوبة الحصول على الوثيقة التي تسمح للحاج بالمرور الآمن في البلدان المختلفة.
- ضرورة دفع الرسوم مسبقا مقابل الحصول على التصاريح للخروج من البلد.
- توفير أموال كافية للرحلة التي قد تستغرق أعواما تبعا لتغير مسار الرحلة أحيانا.
- صعوبة الحصول على رفقة آمنة، سواء كانوا أفرادا أو مجموعة، لضمان أمن الطريق.
- ضرورة القيام بالرحلة في تاريخ محدد، وأي خطأ في الحساب يعني الانتظار مدة عام كامل.

تناول الكتاب كذلك مسار الرحلة، فذكر أن هناك مسارين: مسار الرحلة البحرية، ومسار الرحلة البرية.

فالرحلة البحرية تتم عبر الطرق المعتادة في البحر الأبيض المتوسط، التي تسير فيها السفن بانتظام، وهو أحسن المسار وأفضله؛ لأنه يساعد الحجاج على احتساب الوقت الذي تستغرقه الرحلة للوصول إلى مكة في الوقت المحدد لأداء فريضة الحج في نفس العام.

أما الرحلة البرية فهي شاقة وطويلة؛ لأنها تكون عبر أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية، للإبحار من ساحل البحر الأبيض المتوسط نحو الشرق بالالتحاق بإحدى القوافل التجارية للسفر بأمان أكبر، أو بقوافل الحجاج الذاهبة إلى مكة التي كانت قائمة آنذاك.

وأهم المعالم في الطريق قبل الوصول إلى مكة: القاهرة أو دمشق أو القدس؛ بحيث يتجمع الحجاج في إحدى هذه المعالم لتشكيل قافلةٍ كبيرة العدد، تنظمها سلطات هذه المعالم بطريقة ثابتة ومنضبطة، وتستغرق الرحلة غالبا أكثر من شهر،

بحيث تسير ليلا ونهارا في ظروف في غاية القسوة، وليست هناك استراحة إلا لفترة قليلة، ويحدث غالبا وفاة عدد من الحجاج أثناء السفر بالرحلة البرية.

وتعتبر قافلة حجاج مصر الأكبر من حيث عدد الحجاج والجِمَال، كما أن وصول المحمل المصري إلى مكة يُمثِّلُ حدثًا فخمًا ومهيبًا؛ حيث تصل مع هذه الحملة كسوة الكعبة سنويا هديَّةً من حكام مصر آنذاك، وكانت الجمال الرئيسة للقافلة تسير مُزيَّنة، ويخرج من مكة أشهر فقهاء المذهب الشافعي مع رفقائه على ظهور الخيل المطهَّمة، بينما تصدح أبواق العازفين، ويُسمع قرع طبولهم، وتنطلِق صيحات الفرح والأهازيج التي يطلقها مرافقو الموكب.

ثم يترجَّل أهل المحمل وأصحاب موكب الاستقبال عن رواحلهم، ويتبادلون التحايا، ثم يُقَدِّم أمير المَحْمَل لرجل الدين الشافعي الجَملَ الذي يحمل كسوة الكعبة الجديدة، فيبادر هذا بعمل إشارة توقير، وبعد أن يتم التسليم يطلق الحشد العنانَ لمشاعر البهجة والسرور، بينما يبكي بعضهم فرحاً، ثم يتوجهون نحو باب السلام للدخول منه، أو من باب بني شيبة، حيث المعتاد للحجاج الدخول من خلال هذين البابين عند وصولهم إلى مكة للمرة الأولى.

المغزى الروحي للمدجّنين:

أما ما يتعلق بمغزى الحج الروحي بالنسبة للمدجنين فيتمثل في الحصول على الأجر العظيم، إضافة إلى هيبةٍ تحصل لهم بإضافة لقب "الحاج" إلى اسم الشخص، نوعًا من التقدير والإقرار بهذا العمل الذي يفترض أنه غَيَّرَ مجرى حياته؛ لِذا فَمَهْمَا تعقَّدت ظروف العودة من رحلة الحج، كما هو الحال مع عمر بطون، فإنها ستبقى سببًا لابتهاج الجماعة التي ينتمي إليها الحاج بأسرها.

أهمية الرحلة والمخطوطة:

تكمن أهمية المخطوطة التي عُثر عليها في كالاندا، في كونها النص الوحيد الذي حفظ رحلةَ حج قام بها مسلم من قشتالة تحديدًا إلى مكة، فضلاً عن كونها الحكاية الوحيدة لرحلة الحج إلى مكة، سجلت باللغة الإسبانية لكاتب معروف في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

كما تشكل حكاية "الرحلة" النص الأوسع، والأكثر تفصيلا من بين المخطوطات المحفوظة التي كتبها مسلمو قشتالة، وأراجون، وعلى الرغم من قصرها، فإنها تقدم توصيفات وتفاصيل لا حصر لها عن ظروف الرحلة والأمكنة التي تمت زيارتها في مختلف مراحلها، إضافة إلى مسار الطريق، ووسائط النقل، وتكاليف الرحلة، وعوارض الطقس، والأمكنة المقدسة التي تمت زيارتها، والتي من خلالها استطاع "عمر بطون ورفيقه محمد دل" التعرف على الجغرافيا الإسلامية المقدسة، وهي مشتركة في أمكنة عدة مع المناطق المقدسة لليهود والمسيحيين، ولا سيما في مدينة القدس، وهو الأمر الذي يقود في بعض الأحيان إلى حدوث اتصال ديني، وُدِّيّ بين أتباع الأديان الإلهية.

وثمة جانب آخر مهم جدا يستفاد من هذه الرحلة، ألا وهو أن مسلمي قشتالة كانوا يسافرون إلى الشرق في سفن مسيحية، يتعايش فيها الركاب، وطاقم السفينة من شتى الأديان، ومن بينهم عمر بطون الذي كان بعض رفاق سفره من كبار شخصيات مسلمي غرناطة ومن النصارى.

حكاية الرحلة:

تحت هذا العنوان يوجد في الكتاب تفصيل لرحلة "عمر بَطون ورفيقه محمد دل"، وما حدث لهما أثناء الرحلة؛ حيث استغرقت الرحلة للوصول إلى مكة أكثر من أربع سنوات، بسبب تعرض السفينة لموج عال، ورياح عكسية في بداية الرحلة مما جعلهما يضطران للبقاء داخل البحر أكثر من عشرة أيام، ثم وجدا أنفسهما ما بين جزيرتين مأهولتين بالسكان بالقرب من تونس الحالية، وذلك في عام 1491/ الموافق 23 صفر 897هـ

ثم اتجها إلى بيروت في الرابع عشر من فبراير عام

1493م/ 27 ربيع الآخر 898هـ وصادفتهما كذلك رياح عكسية دفعت السفينة للإبحار صوب ميناء صقلية. وأثناء هذه الرحلة تعرضا أيضا لإعصار شديد، فعندما شعروا بالهلاك طوى الأشرعة كلٌّ من في السفينة، وتركوا السفينة تمضي مع التيار. وأخيرا وجدوا أنفسهم في جزيرة تدعى فايانا، ومنها توجهوا إلى "مودون"، وهي مدينة في الخليج تابعة لسلطة فينيسيا، وقبل الوصول إليها مرض محمد دل المرافق لعمر بطون وبقي شهرا لا يستطيع النهوض، فأيقن بالموت، وكان يموت يوميا عددٌ ممَّن كان معهما في السفينة، مما جعل ربان السفينة يوقنون بعدم وصولهم إلى بيروت إلا بعددٍ قليلٍ من ركَّاب السفينة من الحجاج وغيرهم من التجار الذين كانوا معهم على الرحلة.

وكانت المحطة الثالثة للرحلة إلى جزيرة في يونان، ولكن قبل وصولهم إليها انتشر خبر وفاة من كان على السفينة التي كانت تحملهم، فاضطروا لمغادرة تلك السفينة، والسفر بسفينة أخرى تحمل مجموعة من الحجاج، ومواصلة السير حتى وصلوا إلى ميناء يقع قرب تركيا، وبقوا فيه قرابة شهر مات منهم في هذه المكان أكثر من خمسين شخصا، منهم مفتي غرناطة.

ونقلوا بعد ذلك إلى إسطنبول بالجمال، فوصلوا إلى مدينة بورصة التي تقع على بعد يومين من القسطنطينية، فمكثوا فيها أياما في انتظار القوافل المتجهة نحو دمشق؛ لأن الطريق غير آمن، إذ كان عليهم المرور بالقرب من أراضي التتار، وهناك لصوص وقطاع طريق أيضا.

وبعد المكث فيها أشهرا سافروا إلى القدس: فبقوا فيها كذلك أشهرا، زاروا خلالها جميع المشاهد من الآثار التي تتعلق بالأنبياء، ومنطقة خليل الرحمن التي تسمى حبرون، وفيها دفن كثير من الأنبياء والصحابة.

وبعد مدة من الزمن توجهوا نحو القاهرة، وفي فترة بقائهم فيها قاموا بزيارة الأماكن الأثرية، وقبور بعض الفقهاء المشهورين، مثل: قبر الإمام الشافعي رحمه الله، ثم توجهوا منها إلى ميناء سيناء على جمل استأجروه. وفي السابع من شهر رجب تحركوا من ميناء سيناء متجهين إلى جدة، ولكن السفينة ارتطمت بصخور تحت الماء قبل الوصول إلى جدة، وأيقنوا أنهم هالكون جميعا، ولكن الله كتب لهم النجاة بفضله، ووصلوا في الرابع عشر من شهر شعبان سالمين، بينما غرقت سفينة أخرى كانت محملة بحجاج من اليمن، عندما ارتطمت ببعض الصخور في نفس الموقع، وغرق جميع من كانوا عليها عدا بعض البحارة.

كما غرقت سفن أخرى في نفس المكان قبل وصولهم إليها، وعندما علموا بالخبر حمدوا الله تعالى على أن كتب لهم النجاة؛ وأنهم وصلوا بالسلامة بعد رحلة شاقة وطويلة استغرقت سنوات، تعرضوا خلالها لمواقف صعبة جدا.

وفي الكتاب تفصيل عن كيفية أداء الحج والعمرة، وعن عدد الحجاج الذين حجوا في تلك السنة، وعن زيارتهم لأماكن أثرية في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة.

العودة إلى القاهرة:

وهناك تفصيل عن رحلة العودة من جدة إلى البندقية، مرورا بالقاهرة والإسكندرية. وقد استغرقت رحلة العودة قرابة عام كامل أيضا؛ حيث واجهتهم بعض الصعوبات بسبب قلة المسافرين، وعدم توفر السفن التي تحملهم، إلى جانب تعرضهم لبعض المعاملات التعسفية في بعض المناطق التي مروا بها، وفقدان جميع أمتعتهم كذلك في بعضها.

السرد الزمني للرحلة:

تحت هذا العنوان بيان للبلدان التي زارها عمر بطون ورفيقه أثناء الرحلة مع ذكر التواريخ، كانت بداية الرحلة من ميناء "بلنسية" 25 نوفمبر1491م، والعودة إلى مالطة عن طريق الإسكندرية في أواخر 1495م.

الدور السعودي في تسهيل الحج للأقليات المسلمة

مسلمو آيسلندا مثالاً

د. محمد خليفة صديق ـ السودان

طوال قرون متعاقبة، قطع الحجاج آلاف الكيلومترات من كافة أرجاء العالم الإسلامي، عبر البر والبحر، في رحلات استغرقت أشهراً للوصول إلى المقصد النهائي في مكة المكرمة. ورغم ما صاحب الرحلات من مخاطر وصعاب إلا أن الشوق لبيت الله الحرام وتلبية النداء كان زادهم ومعينهم الأول على المواصلة حتى بلوغ الغاية. ومع انتشار الإسلام ودخول أهالي بلاد العالم المختلفة في دين الله، بدأت تنتظم رحلات سنوية قادمة من جميع البلدان قاصدةً أداء فريضة الحج في مكة المكرمة. تفاوتت

الرحلات في طولها والطرق التي سلكتها، فمنها ما تحتم على أصحابها عبور الجبال أو الصحاري، ومنها ما فضل سالكوه اتخاذ البحر طريقاً لهم رغم ما فيه من مخاطر، وحديثا ظهرت رحلات الجو عبر الطائرات.

امتدت طرق الحج على طول آلاف الكيلومترات في أرجاء العالم الإسلامي من الصين إلى إفريقيا، ومن الهند إلى الأندلس. وكان الحجاج القادمون من أطراف العالم يستغرقون سنوات في رحلة الذهاب والعودة، وكانت مدن كالقاهرة والقدس ودمشق محطات على طريق القادمين من الشمال والغرب، وهكذا اشتهرت منذ ذلك الحين قافلة الحج الشامية التي تضم الحجاج القادمين من حلب والأناضول وأوروبا.

يقتضي الحديث عن وضع الحجاج من الأقليات المسلمة بعد وصولهم إلى الأراضي المقدسة، تناول بدايات مهنة الطوافة في الحرمين الشريفين، وهي وثيقة الصلة بكل من يحج إلى بيت الله الحرام، وهي مهنة قديمة. وكانت للمطوفين هيئة ومشيخة لهم؛ موزعة إلى أربعة مشايخ، للعرب وجاوه وجنوب آسيا وتركيا، وكان المطوف قديما يتولى أمور قرابة 400 حاج. وقد زادت الأعداد مع توفر سبل القدوم لمكة، حتى إن آخر عدد قام بخدمته مطوف واحد كان 7 آلاف حاج، في حين تخدم مؤسسات الطوافة ما يقارب 300 ألف حاج، ومنها مؤسسة مطوفي حجاج أوروبا، التي تحولت إلى شركة. فكما هو متبع في تنظيم الحج في المملكة العربية السعودية عبر وزارة الحج ومؤسسات أرباب الطوائف فإن الجهة التي تهتم بشأن حجاج أوروبا هي شركة مطوفي حجاج تركيا وحجاج أوروبا وأمريكا وأستراليا.

يمثل موسم الحج فرصة ثمينة للأقليات المسلمة في أوروبا والأمريكتين وغيرها، لاستكشاف الإسلام في مهده، والتعرف إليه عن قرب، خصوصاً لمن اعتنق الإسلام حديثاً. ويرى هؤلاء في الحج فرصة للوقوف على فهم أعمق للإسلام، والتخفيف من بعض الضغوط التي تواجههم في بلدانهم، خصوصاً في ظل الانتشار الواسع لظاهرة الإسلاموفوبيا، وما يروجه المتطرفون من تصورات خاطئة عن الإسلام والمسلمين. يقول مفتي مشيخة كرواتيا عزيز حسانوفيتش لوكالة الأنباء الإسلامية الدولية "إينا" إن "مسلمي أوروبا يحرصون على الحج، لأنهم يرون أن شخصية المسلم لا تكتمل إلا بأدائه للمناسك". وأضاف: "لهذا ننصح الشباب دائماً في أوروبا بتعجيل أداء الحج، وعدم تأخيره إلى مرحلة متقدمة من العمر، لأنه يربيهم ويصقل شخصيتهم ويقوي إيمانهم". وقال المفتي: "إن المسلمين كلهم يحلمون بالحج، لكن تحكمهم الإمكانات، لأن الحج عبادة، وأداؤها رهن بتوفر الاستطاعة المالية". وأشار حسانوفيتش إلى أن "الهيئات الدينية بأوروبا تنصح المسلمين بادخار الأموال منذ وقت مبكر لأداء الحج، وهي نصيحة يعمل بها الكثيرون، إذ يقتطعون لسنوات طويلة مبالغ للحج، إلى أن تتاح لهم فرصة أدائه يوماً ما".

وتحرص مؤسسات الحج السعودية على تكثيف البرامج الثقافية والتوعوية الموجهة لهؤلاء الحجاج، حتى يعودوا إلى بلدانهم بتصور أعمق للإسلام، وقيمه المبنية على الوسطية والسلام. كما تنظم المؤسسات زيارات لحجاج الأقليات إلى المعالم التاريخية في مكة المكرمة والمدينة المنورة، لإطلاعهم على المناحي الحضارية في البقاع المقدسة، وتنشط في أوروبا على وجه التحديد مؤسسات مدنية لتمكين المسلمين من أداء فريضة الحج، أهمها الجمعية الإسلامية الخيرية في أوروبا التي أرسلت عام 2017م خمسة آلاف و410 حجاج، من عدة دول أوروبية، عبر 52 قافلة إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج. وأشار مفتي مشيخة كرواتيا إلى

أن "كثيراً من المسلمين المقتدرين يأتون للحج كل عام؛ ففي عطلهم لا يبحثون عن الترفيه والمزارات السياحية في القارة العجوز، وإنما يبحثون عن الحج والعمرة فقط، وهذا مثال للطريقة التي ينظر بها بعض المسلمين الأوروبيين إلى الحج". ونصح مفتي مشيخة كرواتيا الحجاج المسلمين الأوروبيين "بالتركيز على عبادة الحج كقيمة سلوكية وأخلاقية ذات أثر عميق على شخصية الإنسان، والابتعاد عن كل ما ينغص هذه العبادة من الشعارات السياسية والطائفية".

مسلمو آيسلندا والحج

بالنسبة لمسلمي آيسلندا لم تكن لهم حملات منظمة للقدوم للحج في مكة المكرمة والمشاعر المقدسة طوال تاريخهم القصير نسبياً، وذلك لقلة عددهم، ولبعد بلادهم الكبير عن المملكة العربية السعودية، وكان الحاج الآيسلندي إذا عزم على الحج يذهب عن طريق أحد البلدان القريبة لآيسلندا التي فيها سفارة للمملكة العربية السعودية، وهي في الغالب إما السويد أو الدنمارك، ويكونون في الغالب أفرادا وليسوا مجموعات أو حملات.

لكن أول مجموعة أو حملة منظمة لمسلمي آيسلندا تتوجه إلى الحج كانت في 2014م، وكانت مكونة من عشرة حجاج آيسلنديين، وكانت على نفقة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز رحمه الله، وبعد ذلك كانت رحلات حجاج آيسلندا فردية، وفي عام 1443ه لم يشهد سفر لأي حجاج من آيسلندا للأراضي المقدسة، لكن يتوقع هذا العام 1444ه أن يكون هناك حجاج من آيسلندا خاصة بعد رفع كل الضوابط التي كانت موجودة أثناء أزمة جائحة كورونا.

هناك حاجة لتوسيع مبادرة "طريق مكة" التي يقوم من خلالها موظفون سعوديون، بإنهاء إجراءات سفر الحجاج لبعض الدول في مطارات بلادهم،

بحيث يصلون إلى مطارات المملكة ومنها إلى مواقع سكنهم دون تأخير، والتعريف بالخدمات التي تقدمها المملكة للحجيج مع التوعية والدعوة لأداء المناسك بالشكل الصحيح، وشرح الخطوات التي سيمر بها كل حاج، وماذا عليه من واجبات. هذه التوليفة تكون استباقية، أي قبل قدوم الحجاج، ومن خلال وسائل إعلام دولهم، ومبادرة "طريق مكة" تعمل عليها وزارة الداخلية مع برنامج خدمة ضيوف الرحمن، وهو أحد برامج تحقيق رؤية المملكة 2030، ثم توسيع المبادرة لتشمل الثقافي والدعوي والتوعوي، وبإمكانات التقنية الرقمية ووسائل التواصل الإعلامي والاجتماعي، يمكن الوصول إلى كل من عزم على الحج أو حصل على تأشيرته قبل وقت طويل من الموسم، وإيصال الرسائل إليه. ولنتخيل مقدار مساحة التأثير المتوافرة وعمقها إذا ما تم استثمارها بالشكل المأمول.

وسيسهم تمكين الحجاج من التقديم على الحج عبر المنصّة الحكومية الموحدة "نسك حج" في التسهيل لحجاج آيسلندا، في إطار الجهود المبكرة التي تبذلها المملكة لتسهيل إجراءات قدوم ضيوف الرحمن لأداء النسك، ورفع جودة الخدمات المقدمة بهدف إثراء تجربتهم الدينية والثقافية، تحقيقاً لمستهدفات برامج رؤية السعودية، حيث تتيح الخدمة الجديدة للحجاج القادمين من أوروبا وأمريكا وأستراليا بأكثر إمكانيات التسجيل والحجز، والدفع الإلكتروني ضمن إجراءات إلكترونية سهلة وميسرة، واختيار حزم الخدمات مثل: السكن، والإعاشة، والطيران، والإرشاد، والنقل، إضافة إلى التعرف من خلال المنصة على الدول المشمولة في المرحلة الأولى من الإطلاق.؛ كما تُقدم منصّة "نسك حج" حزمة واسعة من الخدمات والمعلومات، وتدعم المنصة سبع لغات متنوعة، لتمكين الحجاج بالدول المشمولة في المرحلة الأولى من الإطلاق من إنشاء الملف التعريفي وإدخال كافة بياناتهم، وفي المرحلة الثانية تتم إتاحة استعراض وحجز حزم الخدمات، وإرفاق الوثائق والمستندات المطلوبة للتحقق منها، وإتمام عمليات الدفع للخدمات عبر (فيزا، ماستر كارد، التحويل البنكي، التحصيل النقدي من خلال مراكز الخدمات الموجودة في دول الحجاج – نظام سداد).

دعم المملكة العربية السعودية لمسلمي آيسلندا

في 15 ديسمبر 2014م سلم معالي سفير خادم الحرمين الشريفين لدى مملكة السويد وجمهورية آيسلندا إبراهيم بن سعد البراهيم في مكتبه بالسفارة في استكهولم، الشيك المقدم من المملكة لوقف آيسلندا كدفعة من المبلغ الإجمالي لشراء موقع الوقف، وتسلم الشيك أمين عام الوقف الشيخ حسين الداودي بمبلغ مليون ومائتين وخمسين ألف دولار أمريكي، وأشاد أمين عام الوقف بالدعم المستمر للمملكة منذ تأسيس الوقف، معرباً عن شكر الجالية لحكومة المملكة التي لا تدخر جهداً في دعم الإسلام والجالية المسلمة.

من أبرز الزيارات الخالدة في ذهن المسلمين الآيسلنديين، والتي تدل على اهتمام المملكة العربية السعودية بالمسلمين في آيسلندا ودعمهم ماديا ومعنويا زيارة الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة معالي الشيخ الدكتور محمد بن عبد الكريم العيسى لآيسلندا في يناير 2020م، لتعزيز التواصل ودعم جهود الاندماج الإيجابي، حيث عقد معاليه جلسة مع أعضاء البرلمان الآيسلندي، وقدم محاضرة كبرى عن التواصل الحضاري وصداقة الأمم والشعوب، وعقد حوارًا مع الجالية المسلمة حول تعزيز التواصل ودعم جهود الاندماج الوطني الإيجابي للمسلمين في المجتمع الآيسلندي، وعقد اجتماعًا موسعًا مع رئيسة حقوق الإنسان وعمدة بلدية العاصمة ريكيافيك.

كيف كان حِجّ الصالحين؟

بقلم: عبد الحميد محمد الراوي
كبير أئمة بوزارة الأوقاف المصرية

في موسم الحَج من كل عام، كان يلح عليّ سؤال أتلهف لمعرفة جوابه، كيف حج الصالحون؟ وما أكثر الصالحين في المسلمين من أيام النبوة إلى أيامنا هذه؟

وليس المراد بهذا التساؤل معرفة أفعال الحج وأركانه وشروطه وكيفية الطواف وأعمال يوم النحر وغيرها من الأعمال والأنساك، فكل ذلك منقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام في كتب السنة وشروحها، ومبسوط في كتب الفقه بتفاصيله ودقائق أحكامه.

وإنما أردت أن أقف على أحوال الصالحين وتضرعهم وخشوعهم في أيام الحج، وأتعرف إلى هممهم وطاعاتهم وعباداتهم والنفحات في تلك الأوقات، وأتبين أخبار قيامهم ودعائهم وإقبالهم على ربهم في ليلهم ونهارهم، أتراهم كانوا يحجون كما نحج

اليوم؟ أم أن الله تعالى قد وهبهم مزيداً من صدق الأحوال والأقوال، ومنحهم وافراً من الإفضال وعظيم النوال، وهداهم إلى الإقبال إليه، ليكونوا مثالاً لمن سيأتي بعدهم وأسوة لمن سيحذو حذوهم؟

وفي تتبع أخبار الصالحين في الحج معرفة كيفية الوصول إلى الحج المبرور، ولا شك أن تحصيل بر الحج عمل مبرور وسعي مشكور وجهد مأجور، كيف لا وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" (رواه البخاري).

اقرأ تلك الأخبار لتجد أنهم كانوا يقدمون من الأعمال وهم خائفون من ردها، مشفقون من عدم قبولها، وكأنَّ قوله تعالى: "والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون" (المؤمنون 60)، ما نزل إلا فيهم وعليهم.

رُوي عن علي رضي الله عنه قال: كونوا لقبول العمل أشد اهتماماً منكم بالعمل، ألم تسمعوا الله عز وجل يقول: "إنما يتقبل الله من المتقين" (المائدة 27).

ونقل الإمام الذهبي في مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه رحمهم الله حادثة تبين حال أولئك الأكابر الذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب في خوفهم وخشيتهم وتوجه قلوبهم إلى ربها فقال: "قال يزيد بن كميت: فتح غلام لأبي حنيفة يوماً رُزمة خز - حرير - فإذا الأخضر والأحمر والأصفر، فقال الغلام نسأل الله الجنة، فبكى أبو حنيفة حتى اختلج صدغاه ومنكباه، وأمر بغلق الدكان، وقام مغطى الرأس مسرعاً، فلما كان من الغد جلست إليه، فقال: "يا أخي ما أجرأنا! يقول أحدنا نسأل الله الجنة إنما يسأل الله الجنة من راضَ نفسه - يعني من هذَّب نفسه واجتهد في تزكيتها وتربيتها- إنما يريد مثلنا أن يسأل الله العفو".

وفيما يخص سفر الحج فقد كانوا يتسابقون لخدمة بعضهم وتقديم المعونة لمن يرافقهم. ففي حِلْية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم (3/285): عن مجاهد قال: "كنت أصحب ابن عمر رضي الله عنهما في السفر فإن أردت أن أركب يأتيني فيمسك ركابي، وإذا ركبت سوى ثيابي، قال مجاهد: فجاءني مرة فكأني كرهت ذلك فقال: يا مجاهد إنك ضيق الخلق".

وكان كثير منهم يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم اغتناماً لأجر ذلك، كإبراهيم بن أدهم، فقد كان يشترط على أصحابه في السفر الخدمة والأذان.

وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في السفر ويشترط عليهم أن يخدمهم، فكان إذا رأى رجلاً يريد أن يغسل ثوبه قال له: هذا من شرطي فيغسله.

وترافق بهيم العجلي، وكان من العبادين البكائين، ورجل تاجر موسر في الحج فلما كان يوم خروجهم للسفر بكى بهيم حتى قطرت دموعه على صدره ثم قطرت على الأرض وقال: ذكرت بهذه الرحلة، الرحلة إلى الله، ثم علا صوته بالنحيب فكره رفيقه التاجر منه ذلك، وخشي أن يتنغص عليه منه سفره بكثرة بكائه، فلما قدما من الحج جاء رجل ليسلم عليهما فبدأ بالتاجر فسلم عليه وسأله عن حاله مع بهيم فقال له: والله ما ظننت أن في هذا الخلق مثله، كان والله يتفضل عليّ في النفقة؛ هو معسر وأنا موسر، يتفضل علي في الخدمة وهو شيخ ضعيف وأنا شاب، ويطبخ لي وهو صائم وأنا مفطر، فسألته عما كان يكرهه من كثرة بكائه فقال: والله أَلِفت ذلك البكاء وأُشرب حبُّه قلبي حتى كنت أساعده عليه حتى تأذى بنا الرفقة ثم ألفوا ذلك فجعلوا إذا سمعونا نبكي بكوا، ويقول بعضهم لبعض: ما الذي جعلهما أولى بالبكاء منا والمصير واحد فجعلوا والله يبكون ونبكي.

ثم خرج من عنده فدخل بهيم فسلم عليه وقال له: كيف رأيت صاحبك؟ قال: خير صاحب، كثير الذكر لله، طويل التلاوة للقرآن، سريع الدمعة، متحمل لهفوات الرفيق، فجزاه الله عني خيراً.

وكان ابن المبارك يطعم أصحابه في الأسفار أطيب الطعام وهو صائم، وكان إذا أراد الحج من بلده (مرو)،

جمع أصحابه وقال من يريد منكم الحج؟ فيأخذ منهم نفقاتهم فيضعها عنده في صندوق ويقفل عليه، ثم يحملهم وينفق عليهم أوسع النفقة ويطعمهم أطيب الطعام، ثم يشتري لهم من مكة ما يريدون من الهدايا والتحف، ثم يرجع بهم إلى بلده، فإذا وصلوا صنع لهم طعاماً ثم جمعهم عليه، ودعا بالصندوق الذي فيه نفقاتهم فرد إلى كل واحد نفته.

أورد ابن سعد رحمه الله، في الطبقات الكبرى قصة شيخ يُكنى أبا الحباب، قال: سمعت الجريري (هكذا بالجيم، وفي بعض المصادر الحريري بالحاء) يقول: أحرم أنس بن مالك من ذات عرق، قال فما سمعناه متكلماً إلا بذكر الله حتى حلّ، قال: فقال له يا ابن أخي هكذا الإحرام.

قال همام بن يحيى: حدثني من صحب أنس بن مالك قال: لما أحرم أنس لم أقدر أن أكلمه حتى حل من شدة إبقائه على إحرامه، وكان شريح إذا أحرم كأنه حية صماء.

يقول ابن الجوزي رحمه الله في التبصرة (2/142)، قد أحرم القوم عن الحلال فأحرِموا أنتم عن الحرام، منعوا أنفسهم من الطيب فاحذروا أنتم جيفة الهوى، يا حسنهم وقد نزعوا المخيط ونزعوا عن التضييع والتفريط، وملأوا بالتضرع البسيط، فارقوا لأجل مولاهم أولادهم، وأعروا عن رقيق الثياب له أجسادهم، وتركوا في مراضيه محبوبهم ومرادهم، فأصبحوا قد أعطاهم مولاهم وأمسوا وقد أفادهم.

الصلاة عماد الدين وركنه الركين، وهي عند الصالحين شريان قلوبهم، ومتنفس صدورهم، لهم معها أذواق وأحوال، وهذا في غير أيام الحج فكيف تراهم في تلك الأيام المباركات الطيبات؟

روى البخاري عن عامر بن ربيعة أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم "صلى السُبحة بالليل في السفر على ظهر راحلته حيث كان وجهه يومئ برأسه، وكان ابن عمر يفعله".

روى الليث بن سعد عن صفوان بن سليم عن أبي بسرة عن البراء بن عازب قال: "سافرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني عشرة سفرة فما رأيته يترك الركعتين قبل الظهر". وقد قال الحسن البصري: كان أصحاب النبي يسافرون ويتطوعون قبل المكتوبة وبعدها، وهو قول جماعة من العلماء، وحج مسروق فما نام إلا ساجداً.

وكان محمد بن واسع يصلي طريق مكة ليله أجمع في محمله، يومئ إيماءً، ويأمر حاديه أن يرفع صوته خلفه، حتى يشغل عنه بسمع صوته الحادي فلا يتفطن له.

وكان المغيرة بن حكيم الصنعاني يحج من اليمن ماشياً، وكان له ورد بالليل يقرأ فيه كل ليلة ثلث القرآن، فيقف فيصلي حتى يفرغ من ورده، ثم يلحق بالركب متى لحق فربما لم يلحقهم إلا في آخر النهار، ولما عدد ابن رجب رحمه الله خصال البر في الحج ذكر أن من أهمها للحاج: إقام الصلاة فمن حج من غير إقام الصلاة لا سيما إن كان حجه تطوعاً كان بمنزلة كمن سعى في ربح درهم وضيع رأس ماله وألوف كثيرة.

ورحم الله القائل:

نزلوا بمكة في قبائل هاشم
ونزلت بالبيداء أبعد منزل

(ينظر شرح صحيح البخاري لابن بطال 3/93).

عن محمد بن صالح قال: بينما أنا في الطواف إذ نظرت إلى أعرابي بدوي متعلق بأستار الكعبة، وقد شخص بصره نحو السماء، وهو يقول: يا خير من وفد الأنام إليه، ذهبت أيامي وضعفت قوتي، وقد وردت إلى بيتك المعظم المكرم بذنوب كثيرة لا تسعها الأرض ولا تغسلها البحار، مستجيراً بعفوك منها وحططت رحلي بفنائك، وأنفقت مالي في رضاك،

فمـــاذا الذي يكون من جزائك يا مولاي؟ ثم أقبل على الناس بوجهه ثم قال يا معشر الناس ادعوا لمن وكزته الخطايا وغمرته البلايا، ارحموا أسير ضر وغريب فاقة ســـألتكم بالذي عمتكم الرغبة إليه، إلا سألتم الله تعالـــى أن يهب لي جرمي ويغفر لـــي ذنوبي، ثم عاود فتعلق بأســـتار الكعبة وقال: إلهي وسيدي، عظيم الذنـــب مكـــروب، وعن صالـــح الأعمال مـــردود، وقد أصبحت ذا فاقة إلى رحمتك يا مولاي.

قال محمد بن صالـــح: ثم رأيته بعرفـــات وقد وضع يســـاره على أم رأســـه يصرخ ويبكي ويشهق ويقول: إلهـــي وســـيدي ومـــولاي أضحكـــت الأرض بالزهر، وأمطرت الســـماء بالرحمة، والذي أعطيت الموحدين إن نفســـي لواثقة لي ولهم منـــك بالرضا، وكيف لا يكون ذلك وأنـــت حبيب من تحبب إليك، وقرة عين من لاذ بك وانقطـــع إليك؟ يا مولاي حقاً أقول لقد أمرت بمـــكارم الأخلاق فاجعل وفـــودي إليك عتق رقبتي من النار.

وعن إبراهيم بن مســـلم المخزومي قـــال: وقفت امرأة متعبدة في جـــوف الليل فتعلقت بأســـتار الكعبة ثـــم بكت وقالت: يا كريم الصحبة ويا حســـن المعونة أتيتك من شقة بعيدة متعرضة لمعروفك الذي وسع خلقك، فأنلني من معروفـــك معروفاً تغنيني به عن معروف من سواك يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة، قال: ثم صرخت صرخة ســـقطت علـــى وجهها فحملت مغشياً عليها.

وعن محمـــد بن زيد قال: ســـمعت ذا النـــون يقول: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام فبينا أنا في الطواف إذ أنا بشخص متعلق بأســـتار الكعبة يبكي ويقول في بكائه: كتمت بلائي من غيرك، وبُحت بسري إليك، واشتغلت بك عمن ســـواك، عجبت لمن عرفك كيف يســـلو عنك؟ ولمن ذاق حبك كيـــف يصبر عليك؟ ثم أقبل على نفســـه فقال: أمهلك فما ارعويت، وستر عليك فما اســـتحييت، وســـلبك حلاوة المناجاة فما باليت ثم أنشأ يقول:

روّعت قلبي بالفراق فلم أجد
شيئاً أمرّ من الفراق وأوجعا
حسب الفراق بأن يفرق بيننا
ولطالما ما كنت منه مفزعاً

(ينظر صفوة الصفوة 2/515).

عن مهران بن عمرو الأســـدي قال سمعت الفضيل بن عياض عشـــية عرفة بالموقف وقد حال بينه وبين البكاء الدعاء، يقول: واسوأتاه، وافضيحتاه وإن عفوت.

وعن يحي بن كامل القرشـــي قال: أخبرني ســـفيان الثوري قال: ســـمعت أعرابياً وهو واقف بعرفة يقول: إلهي من أولى بالزلـــل والتقصير مني، وقد خلقتني ضعيفـــاً؟ من أولـــى بالعفو عني منـــك وعلمك فيّ ســـابق، وأمرك بي محيط؟ أطعتـــك بإذنك والمنة لك علي، وعصيتك بعلمك والحجة لك، فأسألك بوجوب حجتك وانقطاع حجتي، وبفقري إليك وغناك عني أن تغفر لي وترحمني، إلهي لم أحسن حتى أعطيتني، ولم أســـيء حتى قضيت علي، اللهـــم إنا أطعناك في أحب الأشـــياء إليك، شهادة أن لا إله إلا الله، ولم نعصك في أبغض الأشـــياء إليك، الشرك بك، فاغفر لي ما بينهما، اللهم سري إليك مكشوف، وأنا إليك ملهوف، إذا أوحشـــتني الغربة آنســـني بذكرك، وإذا صببت عليّ الهموم لجأت إليك اســـتجارة بك، علماً بأن أزمة الأمور بيدك وأن مصدرها عن قضائك.

وروى أن رجلاً رؤي عشية عرفة على رأس جبل، فلما دنا الانصراف سمع يقول: الأمان الأمان قد دنا الانصراف، ليت شـــعري مـــا صنعت في حاجة المســـاكين؟ قال فبكى حتى جعلت الدموع تثب من عينيه ولا تسيل على خده.

فمـــا أحوج الحـــاج إلـــى أن يتتلمذ على ســـير هؤلاء الصالحين، ويتعلم من سلوكهم رحمهم الله.

وختامًا يا عجباً لمن يقطع المفاوز ليرى البيت فيشاهد آثار الأنبياء كيف لا يقطع نفسه عن هواه ليصل إلى قلبه فيرى آثار رحمة ربه.

مقال

ضمان أمن الحرم من تعظيم شعيرة الحج

بقلم: الدكتور حسن عزوزي
جامعة القرويين بفاس

منذ النداء الخالد بدعوة الناس إلى حج بيته الحرام "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ..." (الحج 27)، أصبح لمكة المكرمة مكانة وقدسية في قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأضحى الجميع يتشوفون إلى زيارتها وأداء مناسك الحج ولو مرة واحدة في العمر.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر البلد الأمين (مكة المكرمة) في أكثر من آية وبأكثر من اسم، فهي البلد، والبلدة وأم القرى وبكة، وهي القرية ومكة. كما سماها الله تعالى بالحرم في قوله تعالى: "أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم" (العنكبوت 67).

أما المسجد الحرام فقد نصت كثير من آيات القرآن الكريم على هذه التسمية عَلَما على المسجد الذي بداخله الكعبة المشرفة، وجاء التعبير القرآني عليه بأكثر من اسم منها: البيت الحرام، وبيتك المحرم، والبيت العتيق، والبيت المعمور.

والمسجد الحرام هو المكان الذي يضم الكعبة المشرفة وحِجر إسماعيل ومقام إبراهيم عليهما السلام وبئر زمزم وكل ما يحيط بذلك من ساحات وأروقة. وقد

اختلف العلماء في المراد بالمسجد الحرام، إلا أن الظاهر أن المراد به عموم الحرم، لأن اسم المسجد الحرام إذا أطلق في القرآن فالظاهر أنه يراد به العموم. ولما كان الحرم يرتبط بفضائه أداء مناسك الحج والعمرة، فإن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية قد أكدت على أهمية تحقيق الأمن برحابه والتشديد على منع أي استهانة أو تهاون بشأن ضمان أمن الحجاج والزوار.

نعمة الأمن في الإسلام

من المعلوم أن مسألة المحافظة على أمن المجتمعات وسلامتها تعتبر إحدى القضايا الجوهرية الأساسية التي أولاها الإسلام اهتماما بالغا، فالإسلام يحرر الناس من الخوف ويرسم لهم الطريقة المثلى ليعيش الناس مستظلين بظلال الأمن والسلم الوارفة.

والمقصود بتعزيز البعد الأمني في الأماكن المقدسة وفي جميع بلاد الإسلام أن يكون الفضاء العام للمجتمع بجميع شرائحه متسما بالاستقرار والهدوء، مع وجود القانون الذي يعطي كل ذي حق حقه. إنه باختصار ما تتحقق به الطمأنينة التي تنفي الخوف والفزع عن الإنسان فردا أو جماعة، ولذلك عُدّ توفر الأمن نعمة ليس بعدها نعمة. وقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه الترمذي في سننه: "من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه، عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها".

ولما كانت العبادة السليمة، ومن ضمنها مناسك الحج والعمرة لا يستقيم أمرها شأنها شأن عمارة الأرض إلا في جو من الأمن والسلام فقد حرص الإسلام أشد الحرص على أن يتوفر للناس أمنهم، ولذلك جعله الله تعالى إحدى المكافآت الكبرى التي يحصل عليها المؤمنون جزاء طاعتهم والتزامهم بالمنهج الرباني في حياتهم. قال تعالى: "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون" (النور 55).

ولذلك فالأمن بما يقدمه للإنسان من أسباب الطمأنينة، يتطلب منه مساهمة فعالة انطلاقا من شعور راسخ لديه بأن ما ينعم به غيره من الخير إنما ينعم به هو أيضا، وأن ما يصيب غيره من شر يرتد عليه أيضا، ولذلك جاء في الحديث الصحيح: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى".

مقومات الأمن في الحرم

إذا كان الأمن من سنن الله التي وضعها لحفظ الأمة ورعايتها، فإنه سبحانه وتعالى إذا أراد إحداث شيء في هذا الكون هيأ له أسبابه. وبذلك كان للأمن مقومات لا يمكن أن يتوفر بدونها، ووسائل تدعمه لا يمكن أن يكون بدونها. وإذا كان الله قد جعل بمكة بيته المحرم وهو باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن ثمة مجموعة من المقومات توجب الأمن في هذه البقعة الطاهرة منها:

أولا: وضع حدود للحرم

لحدود الحرم دور كبير في تحقيق الأمن المكاني، فإن المسلم عندما يصل إلى حد الحرم يشعر بأنه ولج مكانا معينا له أحكام خاصة لا بد أن ينضبط لها، ولولا هذه الحدود لما كان للأمن المكاني معنى، ثم إن ترك الحرم دون حدود يجعله مسرحا للانتهاك والتقلص حتى ينتهي به المطاف إلى نقطة من الأرض لا قيمة لها.

ثانيا: قدسية المكان

حيث ربط الشارع الحكيم أمن مكة بحرمتها وربط الحرمة بالمكان المقدس، فهناك ارتباط وثيق بين العناصر الثلاثة: الأمن والحرمة والتقديس، فالأمن إنما

جعل ليعبد الله عز وجل وليعبده المؤمنون به وهم آمنون لا يروعهم أحد، فلا يخافون أن تصيبهم فتنة في دينهم وأرواحهم وأموالهم. لذلك كان هذا النوع من الأمن المرتبط بالمكان المقدس من أعظم العوامل المؤدية لحفظ مقاصد الشرع في الخلق ومن أجلها وآكدها حفظ الدين والنفس.

ثالثا: تأهيل المكان وتعميره

فالمقصد الأسمى من الأمن المكاني تأمين أهله سواءً أكانوا من سكانه الأصليين أم عُماره أم حُجاجه، وذلك على جميع المستويات: الأمن الغذائي والأمن الروحي والأمن الاجتماعي. ولذلك قضى الله تعالى أن تتحول مكة المكرمة من مكان جدب وقفر إلى قرية عامرة آهلة بالسكان، وقديما سأل إبراهيم عليه السلام الله تعالى الأمن في نفس المكان، وسأله أن يجعل أفئدة الناس تهوي إليهم: "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون" (إبراهيم 37).

في النهي عن التهاون في تعظيم شعائر الله في الحرم

لا شك أن قدسية الحرم الشريف جعلت منه مكانا يختلف عن سائر الأمكنة والأمصار، فالجرم فيه عظيم والذنب فيه جسيم، والسيئة فيه إما تُضاعف أو تُغلظ، حتى إن بعض أهل العلم ذهبوا إلى أن المعصية في البلد الحرام تضاعَف كما تضاعَف الحسنة، وقد سئل ابن عباس (رضي الله عنهما) عن مقامه خارج مكة فقال: "ما لي ولبلد تضاعف فيه السيئات كما تضاعف الحسنات؟".

وقال ابن الجوزي في تفسيره: زاد المسير (1/346): "قوله تعالى [ومن دخله كان آمنا] هو عام في من جنى جناية قبل دخوله وفي من جنى فيه بعد دخوله، إلا أن الإجماع انعقد على أن من جنى فيه لا يؤمن لأنه هتك حرمة الحرم ورد الأمان".

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وقوله سبحانه "ومن دخله كان آمنا" يعني: وجب أن يؤمن وليس المعنى ألا يقع فيه أذى لأحد ولا قتل بل ذلك قد يقع، وإنما المقصود أن الواجب تأمين من دخله وعدم التعرض له بسوء. وكانت الجاهلية تعرف ذلك فكان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يؤذيه بشيء حتى يخرج" (مجموع الفتاوى:1/384).

ومما يحقق الأمن والأمان في البلد الحرام أنه ورد النهي عن حمل السلاح بمكة لغير ضرورة ولا حاجة، فروى مسلم عن سلمة بن شبيب عن معقل عن أبي الزبير عن جابر (رضي الله عنه) قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح" (صحيح مسلم، حديث رقم 1356).

لذلك لا يتصور من قاصدي الحرم من الوافدين وغيرهم هتك حرمة الحرم بإيذاء المسلمين ونشر الذعر بينهم، فقد قال تعالى في حق أهله: "ومن دخله كان آمنا"، فهو آمن بأمان الله، فالواجب تأمين من دخله وعدم التعرض له بسوء، بل إن الأمن والأمان في البلد الحرام لا يقتصر على بني الإنسان فالشجر آمن والصيد آمن كما هو منصوص عليه في الآثار.

النهي عن إحداث الفتن في الحج

من المعلوم أن الله تعالى الذي جعل البلد الحرام بلدا آمنا قد جعل جميع الشعائر المرتبطة به جليلة ومعظمة في النفوس، ولا شك أن أعظم الشعائر الزمانية والمكانية المرتبطة بالبلد الحرام هي شعيرة الحج التي افترضها الله تعالى على المسلمين مرة في العمر، والحج يعتبر مؤتمر المسلمين السنوي الذي يلتئمون فيه في صعيد واحد، وقد هبوا من أصقاع العالم ملبين النداء الرباني العالمي: "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق" (الحج 27). وحجاج بيت الله الحرام وقد أعدوا العدة الكاملة لأداء مناسك الحج في يسر وسهولة

ينتظرون عند وصولهم إلى مكة أن يجدوا فيها كل الأمن والأمان مما من شأنه أن يساعدهم على أداء الفريضة على أكمل الوجوه.

وقد أكد علماء الأمة في جميع الأقطار الإسلامية بأن الحج ليس مكانا لرفع شعارات طائفية أو إعلان حسابات سياسية، فذلك مما يعتبر محرما شرعا لأنه مدعاة للفرقة والتنازع والجدال، وكل ذلك مما يتنافى ومقصود الوحدة وإخلاص العبادة لله، كما في ذلك استحداث أحوال جديدة في عبادة الحج لم يأذن بها الله تعالى، وتتعارض مع مقاصد العبادات التي لأجلها شرعها الله فضلا عن كون ذلك يعتبر إرهابا للآمنين وإحداثا للفتنة بين المسلمين، إذ لا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج والبلد الحرام والأشهر الحرام. والتاريخ يشهد بأن كل من أراد إحداث فتنة في الحج فإن فتنته تنكشف وإجرامه يُجهض. ولو سُمح بذلك وفُتح الباب لكل ناعق محتج فسوف تتحول شعائر الحج ومشاعر منى وعرفات والحرم إلى ساحات صدام وصراع بين الأطراف المتنازعة في البلدان الأصلية للحجاج والمعتمرين، وهو أمر فظيع من شأنه أن يفسد على الحجاج حجهم ويفتنهم عن أداء مناسكهم في الأجواء الآمنة المطلوبة.

ومما لا شك أن وفود المسلمين يأتون في كل عام إلى الديار المقدسة لأداء الحج والعمرة بأعداد هائلة ومن بلدان ومجتمعات مختلفة، وتنقلهم بين مشاعر عديدة وفي أوقات وأزمنة محددة، كل ذلك يجعل من توفير الأمن والأمان لهم مطلبًا ضرورياً ومقصداً مهماً لأنه لا يمكن للمسلمين أن يؤدوا عباداتهم وشعائرهم وإتمام ما من أجله أتوا بدون أمن، وقد أمر الله تعالى أن يكون حرمه آمناً وبيته ملاذاً للطمأنينة ومستقراً للسكينة.

ويعتبر الحديث عن صور الإلحاد وعدم تعظيم شعائر الله مدخلا يحقق التوعية بما ينبغي على ساكن الحرم أو زائره تجنبه من أجل إبقاء جنبات الحرم محترمة وموقرة ومعظمة، ولا شك أن تحقيق ذلك يضمن جواً من الأمن والطمأنينة والسكينة، وهو ما استوعبته حكومة خادم الحرمين الشريفين حفظه الله بالديار المقدسة، فعملت بجدارة واقتدار على توفير الأمن والأمان بالحرمين الشريفين، وتبصير الناس بأهمية تعظيم شعائر الله وعدم الإلحاد فيها بظلم.

ولا ينكر أحد ما تضطلع به حكومة المملكة العربية السعودية من الخدمات وتهيئة مختلف السبل للمحافظة على كرامة الحجيج ومساعدتهم على أداء مناسك الحج بسهولة ويسر، وعلى تعظيم شعائر الله وفق الضوابط المشروعة والطرق المسنونة، ولذلك فهناك حرص بالغ من طرف الهيئات والمؤسسات العاملة في هذا الإطار من أجل تأصيل معنى تعظيم شعائر الله في قلوب جميع المسلمين ليكون الحرم الشريف كما أراد الله تعالى آمنا ومعظما، يتحقق فيه المجتمع المثالي الذي يحتذى به في الحفاظ على الأرواح والأموال والأعراض، والعناية ببيئته وتطهيره وإعماره فضلا عن تحقيق قيمة العزيمة في نفوس المقيمين فيه والوافدين عليه من خلال الرقابة الذاتية على الأقوال والأفعال والمعتقدات سدًا لذريعة الوقوع في مختلف صور الإلحاد المنهي عنها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿ومن يُرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾(الحج 25).

ختاما، لا يملك الباحث اللبيب عندما يخوض في موضوع وجوب تعظيم شعائر الله في الحرم إلا أن يقر بأهمية هذه الجهود في تحقيق مبدأ التعظيم الواجب على كل مسلم أن يتوجه به لجميع الشعائر المكانية والزمانية، وتوفير الأمن ركن ركين في هذا التعظيم، ولا بد أن تتضافر الجهود الحكومية مع جهود الأفراد والجماعات لتحقق الهدف المنشود والمقصود الذي هو تعظيم شعائر الله تعالى وتحقيق حرمتها وخصوصيتها مصداقا لقوله تعالى: ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب﴾ (الحج 32).

مقال

الدروس المستفادة من
حج منسا موسى

الزبير مهداد ـ المغرب

عرف شعب "الماندينغ" بغرب إفريقيا الإسلام منذ النصف الأول من القرن الخامس الهجري (١١م)، بعد إسلام ملكهم الذي عرف بلقب "المسلماني". وانتشر الدين الجديد في المنطقة بكثافة خلال القرنين السادس والسابع (١٢ و١٣م)، بفضل التجار الماندينغ، وكانوا على صلة وثيقة بتجار بلاد المغرب، فأسلموا، واجتهدوا في نشر الإسلام في قبائلهم.

ومن "الماندينغ" انبثقت مملكة مالي وكانت نواتها مملكة كانجابا، أما المؤسس الحقيقي للمملكة فهو "سونديانا كيتا" (ت١٢٥٥م)، الذي حكم عرش مالي بحسب رواية ابن خلدون مدة خمسة وعشرين عاماً. واستطاع أن يجعل من مملكته الصغيرة إمبراطورية عظيمة، بعد أن هزم ملك الصوصو، وضم أرضه إلى بلاده فضلاً عن مملكة غانة، ثم أسس عاصمة جديدة في "بني".

عرفت مملكة مالي ازدهارا اقتصاديا هاما، بفضل نمو وتوسع النشاط التجاري، الذي كان يشمل المواد الغذائية والصناعية والمعادن وغيرها، ما مكنها من

قوة هائلة، هيأها لتوسع كبير في عهد "منسا وُلي" الذي حكم من عام ١٢٥٥م حتى عام ١٢٧٠م. فضمت إلى حكمها مملكة سونغاي، وأراضي غرب إفريقيا بين نهري النيجر والسنغال، وبلغت ذروتها بضم أراض واسعة أخرى أصبحت الآن جزءًا من بوركينا فاسو وغامبيا وغينيا ومالي وموريتانيا والنيجر ونيجيريا والسنغال وتشاد، فكانت واحدة من أكبر الإمبراطوريات في العالم المعروفة بالثراء الواسع. وكان "وُلي" أول من حمل لقب "منسا"، الذي يعني السلطان الكبير أو ملك الملوك بلغة الماندي.

وبلغت مملكة مالي أوجها في القرن الـ١٤م، فأصبحت تمتد شمالاً داخل الصحراء حيث توجد مدينة ولاتة المعروفة أيضاً تحت اسم بيرو، وجنوباً حتى أطراف السافانا عند مصادر الذهب، وغرباً حتى المحيط الأطلسي، وأما الحدود الشرقية فقد اقتربت من مناجم النحاس بتكدا، فكانت إمبراطورية شاسعة الأطراف.

حج السلطان منسا موسى

تولى "منسا موسى" الحكم بين عَامَيْ (٧١٢ – ٧٣٧هـ / ١٣١٢ – ١٣٣٧م) "وكان رجلاً صالحاً، وملكاً عظيماً، له أخبارٌ في العدل تؤثر عنه، وعظمت المملكة في أيامه إلى الغاية، وافتتح الكثير من البلاد"، وبعد استتباب حكمه، وترسيخ سلطته، وتقوية هياكل الدولة، عقد العزم على أداء فريضة الحج، أسوة بأسلافه الذين لم يقصروا في أداء فرضهم، مع تحملهم أعباء المسؤولية السياسية بحكم الإمبراطورية. فأخذ الاستعداد لهذه الرحلة وقتاً طويلاً، وأحسن تجهيز القافلة، بالمال والعتاد والرجال، ثم استناب على بلاده ابنه "منسا مغا الثاني"، ليخلفه في حكم البلاد إلى حين عودته، فبدأ الرحلة في أواخر عام ٧٢٣هـ / ١٣٢٤م.

كان ركب الحج يضم الآلاف من الحجاج، منهم زوجته

"إنار كنت"، وجمعاً كبيراً من الأمراء والوزراء وحكام الولايات والقضاة والعلماء والفقهاء والأتباع والخدم والحاشية والحرس الملكي، والكثير من العساكر لحماية القافلة من قطاع الطرق، وقد أحاط السلطان نفسه بمظاهر الترف والأبهة في مصر، وحمل معه كمية ضخمة من الذهب مخصصة للصدقات والهبات.

وعند وصوله إلى مصر استقبله الأهالي واحتفوا به، وأرسل إليه السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون "المهمندار" (المكلف بضيوف السلطان) الأمير أبا العباس شهاب الدين أحمد بن علي الحاكي، باستقبال الوفد، وأنزل "منسا موسى" وحاشيته بقصر القرافة الكبرى في القاهرة، وكان في استقبالهم وضيافتهم والي القرافة والقاهرة الأمير أبو الحسن علي بن أمير حاجب (ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م)، وقد جرت بينهم عدة اجتماعات وأحاديث

عن مملكة مالي، وممالك إفريقيا وأحوالها، كما التقى عدداً كبيراً من الفقهاء المالكية، وتحدث معهم في كثيرٍ من الأمور، ثم صعد للقلعة لمقابلة السلطان الناصر، واجتمع به، وتوطدت العلاقات بينهما.

وبعد أن وصلت قافلة منسا موسى إلى الحجاز أدى مناسك الحج على أتمّ وجه وأكمله، ثم غادروا إلى المدينة، وزاروا مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، كما تصدق على الحجاج وأهل الحرمين بمالٍ كثيرٍ ووافرٍ من التبر قُدّر بعشرين ألف مثقال من الذهب.

وبعد رجوعه إلى القاهرة أرسل إلى الملك الناصر محمد هدايا كثيرة، فقبلها السلطان، وبعث إليه بالخِلَع والعطايا له، ولكلّ أصحابه، مثل التحف الألطاف من البزّ السكندري والأمتعة الفاخرة. والجدير بالذكر أنّ خيراته لم تكن مقصورة على الحجاز ومصر، بل كان يتصدق على الناس، ويبني المساجد، ويقدم الهبات طيلة الرحلة الحجية.

وبعد حياة حافلة توفي السلطان منسا موسى عام ٧٣٧هـ/ ١٣٣٧م، بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة، وحكم من بعده ابنه منسا مغا الثاني.

دروس من رحلة حج منسا موسى:

اشتهر "منسا موسى" بحجّه الأسطوري إلى مكة، ويروج عدد من المواقع في شبكة الإنترنت قصصاً خرافية عن ثرائه الفاحش الذي لم يدركه أحد قبله ولا بعده، إلا أن التاريخ لا يشهد لمنسا موسى بثروته فحسب، بل أيضًا بحكمته وكرمه، التي تغيبها هذه الكتابات، وفيما يلي بعض الدروس التي يمكن أن نستمدها من سيرة هذا الملك الإفريقي:

١) القيادة هي خدمة الوطن: كان "منسا موسى" يتمتع بقوة ونفوذ كبيرين، ولكن بدلاً من استخدام هذه القوة لتحقيق مكاسب خاصة به، استخدمها لخدمة شعوب إمبراطوريته، فعمل على تحسين حياة رعاياه وخلق مستقبل أفضل للجميع. فالقيادة الحقيقية هي خدمة الآخرين والعمل من أجل الصالح العام، وهذا ما جعله يحظى بتقدير ومحبة مواطنيه، ومكنه من تقوية أسس دولته، فلم يغادر "منسا موسى" بلده، حتى رسخ قواعد الدولة، وضمن استقرارها وأمنها، فقيامه برحلة الحج يستلزم سنتين من الغياب، وإقدامه على ذلك يدل على قوة الدولة، وتمتعها بالأمن والاستقرار السياسي.

حين وصل "منسا موسى" إلى مصر، وقابل السلطان المملوكي قلاوون، رفض السجود له، وتقبيل الأرض بين يديه، كما يقتضي العرف الذي فرضه المماليك على غيرهم، ورفض "منسا موسى" هذا العرف المهين، لتأكيد سيادة دولته واستقلاليتها، وعدم خضوعها للسلطان المملوكي، وحرصا على نديته. فمنسا موسى لم يكن ينظر إلى نفسه مجرد شخص عابر، بل ممثل دولة، وحاكم بلد مستقل، يتمتع بسيادة، ولا يقل أهمية ولا شأناً عن مصر.

٢) الثروة ليست غاية في ذاتها: على الرغم من ثروته الأسطورية، فإن التاريخ المنصف لا يذكر "منسا موسى" بكميات الذهب التي كان يمتلكها، بل بالحكمة التي حباه بها الله، والكرم الذي ميزه. لقد استخدم ثروته لإفادة أهل إمبراطوريته ولتحسين حياة من حوله. يعلمنا أن الغنى لا يتحدد بحجم الثروة، بل بما يمكن أن يتحقق من خير وسعادة بهذه الثروة. فثروة مالي أفادت الأفارقة بدرجة أولى، ثم العديد من المسلمين.

لعل "منسا موسى" بالغ في إظهار ثروته، لكن للتدليل على القوة الاقتصادية لدولته وعظمتها. تعود ثروة مملكة مالي إلى مناجم الذهب الغنية، وموارد تعدينه، وكانت مالي من أهم منتجي الذهب

في القارة، كما استندت مواردها أيضًا إلى مناجم النحاس والملح، وإلى النشاط التجاري الواسع، فقد كانت مالي قلب إفريقيا، وحلقة وصل بين شمالها وجنوبها، شرقها وغربها، عاش في رحابها شعب غني، وقصدها التجار والمثقفون من شتى البلاد لتحسين حالهم والارتقاء بأوضاعهم الاقتصادية.

٣) التعليم عنصر قوة: علق "منسا موسى" أهمية كبيرة على التعليم، فخلال رحلة الحج جالس العلماء والشيوخ المدرسين، واطلع على المدارس والمجالس العلمية، وأنظمة الدراسة، وبعد عودته، كثف خططه لبناء المدارس والمساجد في جميع أنحاء إمبراطوريته، وشجع السعي وراء المعرفة في جميع المجالات. وأرسل البعثات التعليمية إلى فاس للدراسة في جامعها الشهير "القرويين". سمح هذا الاهتمام بالتعليم للإمبراطورية بالازدهار، وجعلها مركزًا للتعلم والثقافة في غرب إفريقيا، كما استقدم العلماء رغبة في تحقيق نهضة ثقافية علمية وتكوين نخبة محلية مثقفة، وجعل بلده نقطة إشعاع ثقافي في غرب إفريقيا.

كما حرص "منسا موسى" عند عودته، على جعل تمبكتو عاصمة علمية، اهتم بها فحولها إلى مركز جامعي إسلامي كبير. قام بتجنيد مهندسين معماريين وعلماء من المغرب والأندلس فأنشأ مسجد دجينجاربير الشهير، الذي أكسب المدينة مكانًا مهمًّا على الصعيدين الديني والتجاري، وجعل من تمبكتو مركزًا للتأثير الثقافي والإسلامي والاقتصادي.

٤) الاحتفاء بالثقافة والتنوع: كانت إمبراطورية مالي مجتمعًا متنوعًا ومتعدد الثقافات، واحتضن "منسا موسى" هذا التنوع، شجع التجارة والتبادلات بين مختلف الشعوب، ما ساعد على خلق ثقافة غنية وحيوية، فتح بلاده لاستقبال علماء ومثقفي شمال إفريقيا وغيرهم، كما استقدم معه عددا من الأشراف القرشيين خلال عودته من الحج، تعبيرا عن رغبة السلطان في توطيد علاقات بلاده الثقافية مع البلدان الإسلامية.

كانت تلك الرحلة استهلالاً لتوافد أعداد كبيرة من التجار والعلماء إلى مالي؛ حيث أسهموا في ازدهار النشاطين الاقتصادي والثقافي، وقد أحضر معه "منسا موسى" نفسه في طريق العودة من الحج جملة من الكتب الدينية، التي ألهمت العلماء ونشطت الحياة العلمية والثقافية بشكل ملحوظ.

كما التقى في مكة بالمهندس الشاعر الأندلسي إبراهيم الساحلي الطويجن، فاستقدمه معه أثناء عودته، وكان للطويجن دور هام في ازدهار الحركة العمرانية في بلاد إفريقيا، وبهر بلاد مالي ببراعته في الهندسة المعمارية الإسلامية، فبنى قصراً للسلطان، ومساجد في تنبكتو وغاو، وهذا المهندس الأندلسي هو الذي يحوز إدخال الآجر المشوي في البناء بالمنطقة.

٥) أهمية تبادل الدعم: إن روح الأخوة الإسلامية أسهمت بشكل قوي في تخفيف عنائهم، والتسرية عنهم، وتشجيعهم على مواصلة الرحلة الشاقة، فطيلة الرحلة كان ومرافقوه مغمورين بدفء الأخوة الإسلامية، فكانوا يلقون الترحيب حيثما حلوا، واللقاءات الودية، الجلسات العلمية والنقاشات، والضيافة الكريمة والهدايا القيمة، أسهمت بشكل واضح في إيناسه من وحشة السفر، والتسلية عنه، ما كان يشكل دعما نفسيا وماديا لمواصلة الرحلة المباركة.

فالمشاق لم تثبط همته، ولم تفل عزمته، فقد واصل الرحلة حامدا شاكرا، تواقا للوصول إلى بيت الله العتيق، الذي يهون من أجله كل شيء.

٦) التنمية بين الاعتماد على النفس والتعاون:

يجب التمييز بين ضرورة الاعتماد على النفس، وبين التعاون وتبادل التجارب، فمنسا موسى اعتمد على نفسه وإمكاناته لبناء تمبكتو، وفي الوقت نفسه، استعان بالمهندس الأندلسي الطويجن، لتطوير عمارة تنبكتو، وبالبعثات التعليمية نحو فاس والأزهر لتحقيق النهضة العلمية.

سعى "منسا موسى" إلى تقوية علاقات بلاده مع عدة دول، بهدف تطوير وسيلة قادرة على إعادة بناء التعاون الثقافي والاقتصادي والعلمي والسياسي معها، وقد حققت نتائج ثمينة جدا.

٧) دور الثقافة العربية الإسلامية في تقوية روابط التعاون: الدرس المهم الذي نستنبطه من رحلة منسا موسى وسائر الرحلات الحجية الإفريقية أن نجاح العلاقات الإقليمية يتأسس على المشترك الثقافي والديني بالدرجة الأولى، فالعلاقة بين العرب والأفارقة علاقة ثقافية عريقة قوية، ازدادت قوة ومتانة مع الإسلام، فأضحت الثقافة العربية الإسلامية فاعلة مهمة في بناء العلاقات السياسية والاقتصادية بين هذه الدول، تغلبت على الحواجز الجغرافية الفاصلة بين المنطقتين.

وكان لهذه العلاقات أن تأخذ بعدا أقوى، لو تمتع القادة بوعي ذكي بأهميتها، ولولا التدخل الاستعماري الذي أدرك خطورتها، وعمل على محاصرتها وتقزيمها وتدميرها.

وتواصلت الرحلات

فتحت رحلة منسا موسى آفاقا جديدة في العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين السودان الغربي ودول العالم الإسلامي، كما فتحت أيضا أبواب الأمل لكثير من مسلمي السودان الغربي في أداء مناسك الحج. ولم يمر وقت طويل على هذه الرحلة، حتى انطلقت رحلة حج أخرى مبهرة، قادها الاسكيا محمد الكبير عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، في مظاهر أبهة، وثراء، وأعداد غفيرة من الحجاج، فاقت رحلة "منسا موسى"، وخلفت أصداء واسعة أيضا. ولم تتوقف هذه الرحلات الدينية الثقافية الاقتصادية، إلا بعد أن أطبق الاستعمار الغربي على القارة الإفريقية، ونهب ثرواتها، وأفقر شعوبها.

فقد كانت مواسم الحج المباركة مناسبات لإخراج الكيانات السياسية من دوائرها الضيقة التي ترسمها الحدود الجغرافية، وفي مواسم الحج، تتعارف الكيانات، وتتبادل الحوار، وتؤسس لعلاقات اقتصادية وثقافية وسياسية وديبلوماسية متينة، تزيدها الهوية الدينية قوة وصلابة.

المراجع

١. أحمد، مهدي رزق الله: حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غرب إفريقيا، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٩٨٩.

٢. باري، محمد فاضل علي، وسعيد إبراهيم كريدية: المسلمون في غرب إفريقيا، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧.

٣. البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، (الجزء ٥ من المسالك والممالك)، بغداد، الجزائر، مطبعة الحكومة، ١٨٥٧، (تصوير مكتبة المثنى ببغداد).

٤. السعدي، الشيخ عبد الرحمن بن عبد الله: تاريخ السودان، باريز، المدرسة الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية، ١٩٨١.

٥. الشكري، أحمد: الإسلام والمجتمع السوداني، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ١٩٩٩.

٦. عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، (تصحيح أ. الكرمي) الرياض-عمان، بيت الأفكار الدولية.

٧. العمري، ابن فضل: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق ك. س. الجبوري، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠، ج٤

٨. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، دار الكتب الخديوية، ١٩١٥، ج٥.

شوق الحَجّ

بقلم: محمود مصطفى حلمي ـ مصر

جلس أبي في غرفته والهموم تحاصره من كل جانب، كانت الأفكار تتوارد إلى ذهنه متتابعة فلا يقدر على منعها...

أسئلة كثيرة دارت برأسه فلم يجد لها إجابة، هل سيأتي بعد العُمْر عُمْر جديد؟ كان يخشى فوات عمره دون أن يؤدي فريضته، طوال حياته ينتظر اللحظة التي تسنح له فيها الفرصة حتى يستطيع الحج، أخيراً شعر أنه في الحالة التي تؤهله لذلك، بدنياً ومادياً.

تراءت له الكعبة المشرفة، وكأنها تناديه من بعيد ليطوف بها، وتراءت له عرفات، وهي تتلألأ تحت شمس السماء. وقتها جهَّز نفسه ليشد الرحال إلى البيت الحرام، ولِمَ لا؟ وقد حان وقت الفريضة التي ستمحو ذنوبه، وتطهر ما لحق به من سواد المعاصي طوال حياته. لكن تأتي الرياح بما لم تشتهِ السفن، فكانت تلك الجائحة التي عطلت كل شيء...

بالفعل توقفت الحياة تقريباً، توقفت الطائرات عن الطيران، وأغلقت الحدود أبوابها بين الدول، حتى

بيوت الله طالها الإغلاق من أثر تلك الجائحة.

ضاقت بأبي نفسه حتى كاد أن يقاطع الدنيا وما فيها، فقد رأى اللحظة التي يحلم بها منذ زمن تذوب كما يذوب الجليد أمام عينيه، عمّت الكآبة وجهه، وصار يختلي بنفسه أكثر مما يرانا ونراه، كنا نعلم جميعاً ما ألمّ به من حزن، لكن الأمر لم يكن بأيدينا، لم يكن بيد أحد على الإطلاق. إنه الوباء قد عمَّ حتى طال البلاد والعباد، والعبادات والشعائر، ووضع الجميع حتى المسؤولين في الدول مصلحة العباد فوق كل شيء، وهو ما يجب شرعاً بالتأكيد لحفظ الحياة.

كانت نية أبي صادقة، لذلك كنا نشد أزره قائلين إن الله يعلم ما في نفسك، وسيكتب لك الحج ما دامت الظروف قد أعاقتك عن قضائه مع إخلاص نيتك، لكن شوقه للبيت كان أكبر بحيث لم نتخيل ما حدث.

برح الشوق إلى الحج بأبي إلى درجة أننا شعرنا أن روحه لم تعد تسكن جسده، بل طارت روحه لتمكث في البيت الحرام، وعرفات، ومنى، والمزدلفة.

كنا نسمع تلبيته، وتكبيره، وذكره وبكاءه وهو منعزل عنا. لدرجة أننا أوشكنا أن ننعته بالجنون، كيف وهو بيننا ولكنه يعيش تلك الأماكن بخياله، وكأنه يتنقل بين المشاعر المقدسة.

دخلتُ أمي عليه ذات يوم فجأة فوجدته قد لبس ملابس الإحرام وهو يلبي ويهلل، بل كان يبكي من أثر الدعوات التي يرددها لسانه، والكلمات التي تخرج من سويداء قلبه.

لم نتحمل أن يتطور الأمر، فقررنا أخذه للطبيب، حتى لو رفض فكنا سنأخذه عنوة. لم يكن في نيتنا أن نتركه لتلك الهواجس تمحو عقله أو تتلف أعصابه... بعد قيام الطبيب بالكثير من الفحوصات الدقيقة للمخ والأعصاب وغير ذلك، أجزم أن أبي سليم تماماً ولا يشوب عقله أي مشكلة، بل إنه يتمتع بصحة جيدة للغاية. تعجبنا من الأمر، لكننا لم نطمئن بعد فذهبنا به إلى طبيب آخر، ليؤكد من جديد نفس الكلام، أبي سليم تماماً.

حين عدنا إلى البيت جلسنا وتوسط أبي مجلسنا، عمّ الوجوم وجوهنا، وسيطر الصمت على تجمعنا، لكن ذلك الصمت لم يدم بيننا طويلاً لأن أبي قد كسره بحديثه، نظر إلي وجوهنا ثم تحدث بصوت مبحوح وعين دامعة، أخبرنا أنه ليس بمجنون، بل هو يرى المشاعر تتمثل أمامه، وكأنه هناك بالفعل، تعجبنا من حديثه إلا أنه استطرد موضحاً، لم يكن ذلك من لا شيء، لقد زاره الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم في منامه، نعم الحبيب الذي نشتاق جميعاً لرؤيته أو زيارته، الحبيب الذي ندعو الله تعالى ليلا ونهارا أن نَنال شربة ماء من يده الشريفة، إنه الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم.

أخبرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد زاره في منامه أولاً، نظر إلى أبي بوجه سمح وابتسامة مشرقة ثم أخبره بصوت لن ينساه أبداً أن قد كُتب له الحج، وإن لم يستطع الذهاب بجسده ليحج، ولمّا أخبره أبي أنه يشتاق للبيت والمشاعر وعده بأن الله سيمكنه من زيارتها. ومنذ ذلك الوقت وأبي يرى كل المشاعر أمامه كأنه هناك بالفعل، يكبّر ويلبي ويدعو، وكأن الله قد منّ عليه بالحج بل أكثر من ذلك.

اغرورقت عيوننا جميعاً بالدموع، اقتربنا من أبينا وتحلقنا حوله، جلسنا عند قدميه وأخذنا نتسابق على تقبيلها، لم يدر بخلدنا أن هذا الرجل البسيط ربما كان ذا خبيئة مع رب العباد، ولم نُدرك أبداً تلك المكانة التي غفلنا عنها جميعاً، لهثنا تحت قدميه كي يسامحنا، تيقنّا حينها أن رب العباد لا يريد منا سوى صدق النية والسعي الحثيث والقرب قدر الوسع والطاقة، حينها فقط يمكننا أن نرى قدرة الله التي ليس لها حدود تُيسر لنا كل عسير.

رابطة العالم الإسلامي

MUSLIM WORLD LEAGUE